

دورية ثقافية معرفية
تصدر أول كل شهر
www.klmtuhaq.blog

العدد
04

نوفمبر
2017
klmtuhaq

مجلة كلمة حق - السنة الأولى - العدد الرابع - 76 صفحة

حاجة الثوار إلى التدوين

- مالكولم إكس ضريبة الثورة
- علم التمرد
- طبقات الاستبداد ومقاومة الأمة
- يسألونك عن الجبهة الإسلامية للإنقاذ



محتويات العـــدد

السنة الأولى - العدد الرابع
نوفمبر ٢٠١٧



دورية ثقافية معرفية
نخبة من الكتاب والمفكرين

المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
معتز زاهر

www.klmtuhaq.blog



klmtuhaq



الافتتاحية

المغامرة الخطيــرة

محمد إلهامي

كنت قبل أيام في مؤتمر منعقد باسطنبول، وقابلت طالب علم من إخواننا في تركستان الشرقية، سألته عن الطلبة التركستان الذين قبضت عليهم السلطات المصرية ورحلتهم إلى الصين، فأخبرني أن جميع أولئك قد حُكِم عليهم بالسجن عشرين سنة، وأن واحدًا منهم قُتِل تحت التعذيب، وسُلِّمت جثته لأهله. ثم شرع في الحديث عن أحوال المسلمين في التركستان، وهي مريرة مؤسفة، ويكفي أن يُعلم منها أن الصين ترى مجرد التعلم باللغة العربية دليلا على الإرهاب، وتهدم المساجد في القرى وتطارد سائر مظاهر الإسلام.

هذا الحادث دليل واحد، وهامشي، وبعيد من أدلة أن الانقلاب العسكري في مصر هو انقلاب على الإسلام، ففي أي تصور آخر -حتى بالمنظور الوطني العلماني- يعد تسليم طلبة الأزهر ضربا في مكانة مصر ونفوذها وقوتها الناعمة العريقة (الأزهر)، وهو ما لا تفسير له إلا أن تلك السلطة هي سلطة ضد الدين وضد البلد، هي على الحقيقة سلطة عميلة تخدم المصالح الإسرائيلية والغربية في المنطقة.

يضع كل محب لفلسطين وللمقاومة ولحماس يده على قلبه خوفا إزاء موضوع المصالحة الأخير، ذلك أنها مغامرة سياسية في غاية الخطورة، ونحن أمة حافلة بالتجارب التي تُثْبِت بسالتنا وبأسنا وشدتنا لكنها كثيرا ما تضيع في ساحة السياسة.

يعلم الجميع أن الفارق بين حماس وسلطة فتح هو نفسه الفارق بين الجهاد والعمالة، فمتى تصالح الجهاد مع الخيانة؟!

ويمكن سوق الكثير من الأسباب التي نتفهم بها ما تفعله حماس، التي حملت عبئا مضاعفا في إدارة قطاع غزة لأحد عشر سنوات تحت حصار شيطاني، وفي ظل أربعة حروب إعجازية مع ميزان القوى المنهار بينها وبين إسرائيل المدعومة بالأنظمة العربية المجرمة والعميلة. مما جعل غزة تصنع بنية تحتية متينة للمقاومة الباسلة. ويعرف الجميع بمن فيهم حماس أن الهدف هو سلاحها وكوادرها، بل والكوادر أهم من السلاح.. وقد عانت إسرائيل في ظل تلك السنوات من سد منافذ العمالة التي مكنتها من إيقاع ضربات مؤلمة للمقاومة،

وفاجأتها المقاومة بما لم تكن تحتسب.. فالآن لا هدف لها -ولعملائها في سلطة فتح، والنظام العسكري المصري- إلا الحصول من جديد على المعلومات وتجديد شبكة العملاء.

لنكن صرحاء.. إنه مهما بلغ نظام حماس الأمني فلا نظام بلا ثغرات، ولا يعرف التاريخ حركة لم يحدث فيها اختراق، وفتح غزة أمام سلطة فتح سيمثل عبئا ضخما إضافيا على نظام حماس الأمني لحماية نفسه، وهو عبء لا يمكن ضمان نجاعته في نهاية المطاف، لأن إسرائيل وفتح ومصر ستدفع إلى غزة بنخبتها الأمنية لتحقيق أهدافها بأسرع ما يمكن.

وقبل دقائق من بداية كتابة هذه السطور جاء الخبر بمحاولة فاشلة لاغتيال توفيق أبو حصين مدير الأمن الداخلي في قطاع غزة بتفخيخ سيارته. وقبلها بيوم واحد نشرت كتائب القسام خبرا عن وفاة القائد القسامي محمد أبو جزر في حادث سير! ولم تُنْشَر أي تفاصيل مما يجعله مفتوحا على كل التفسيرات. أي أن «ثمرات» المصالحة ظهرت قبل وقوع المصالحة نفسها. كما أن تصريحات يحي السنوار منذ بدأ ملف المصالحة تزيد في المخاوف، ليس أولها تهديده بكسر من يعترض على المصالحة من أبناء حماس ولن يكون آخرها تصريحه المحتمل للتأويلات حول سلاح حماس ووضعه تحت إشراف مظلة جامعة، ومن جهة أخرى فازدياد تسرب أخبار عن تحول بعض العناصر القسامية إلى تنظيم ولاية سيناء (داعش) يؤشر على أزمة مكتومة تجري في الدهاليز بين عناصر حماس العسكرية وبين القرار السياسي.

على الجانب الآخر فتصريحات عباس صريحة في استهداف سلاح المقاومة، وهي التصريحات التي انزعج لها مدير المخابرات المصرية وطلب التوقف عنها مؤقتا، فأجيب إلى طلبه، ثم السكوت الإسرائيلي عن عرقلة المصالحة حتى وُقِّع إعلانها في القاهرة، ثم التصريح الفج للمجلس الوزاري المصغر. والأهم من هذا كله أن المشهد على الأرض لم يشهد تغيرا بل صدق عباس لما قال أنه لن يرفع إجراءاته العقابية عن حماس إلا حين يتمكن منها فعليا.

هي إذن مغامرة كبيرة وتحتاج يقظة وانتباها وذكاءا بالغا في إدارتها، نسأل الله أن يوفقهم ويعينهم عليها.

ثم يبقى السؤال الكبير قائما: إن المصالحة إما ستفشل على الأرض، أو أنها ستصل إلى النقطة الحرجة: نقطة سلاح المقاومة. وقبل ذلك ستكون بعض الأحداث قد أسفرت عن مدى النجاح في الانكشاف الأمني لكوادر القسام. وفي كل الأحوال ما الذي تملكه حماس في حال فشل المصالحة وبقاء الوضع في غزة على ما هو عليه؟!

لا يكاد يُرى في الأفق إلا ثلاثة مسارات كبيرة:

١. الاستسلام والتخلي عن مشروع المقاومة، تحت إكراه الواقع العصيب، ثم التحول إلى نسخة جديدة من فتح

٢. الانفجار بوجه إسرائيل، وهي الحرب التي قد تكون انتحارية في حال وقعت بعدما حصل قدر من الانكشاف الأمني لقطاع غزة عبر زمن محاولة إنجاح المصالحة.

٣. الانفجار بوجه مصر، لمحاولة تصدير أزمة غزة إلى الجوار، لإجبار الأطراف المعنية لإعادة إحياء المصالحة وإيصال رسالة أن أزمة غزة لن تدفع غزة وحدها ثمنها.

نعم.. ربما جاء الوقت بأحداث تغير من المشهد، فتكون فائدة المصالحة أنها كسبت الوقت وأجلت الأزمة، إلا أنه لا ينبغي في أي حال الاعتماد على ما قد يأتي به الزمن.

لا يزال ابن سلمان ماضيا في جر السعودية إلى العلمانية والتطبيع مع اليهود.. كان نظام السعودية يمارس العلمانية والتطبيع بعيدا عن الشعب، فالنظام علماني، مشارك في كل ما يقتل المسلمين ويخمد ثوراتهم ويعيد تركيعهم للمستبدين.. وتلك سياسة السعودية على الأقل من بعد وفاة الملك فيصل، وإن كان كثير من الباحثين يمتد بها إلى سياسة الدولة السعودية الثالثة كلها.

الجديد هنا أن النظام السعودي خلع البرقع، ومضت وسائل إعلامه في هدم الدين وتسويق التطبيع مع إسرائيل صراحة.. وهو الثمن الذي يدفعه بن سلمان للأمريكان والإسرائيليين لتمكينه من عرش المملكة، أي أن الزلزال الذي تتعرض له السعودية له يشمل الأسرة المالكة كما يشمل عموم الجماهير، وهو ما يجعل البلاد على صفيح ساخن لا يُدْرَي من سينفجر أولا: الأسرة الحاكمة أم المجتمع، ولا من سيتلوه في الانفجار وكيف تتفاعل الأمور ويسند بعضها بعضا.

الواقع أنه ليس أصعب على المسلمين من تهدد بلاد الحرمين لمكانتهما في النفوس، والواقع أيضا أنه ربما لم يُجرم نظام في القرن الأخير بحق المسلمين كما أجرم نظام آل سعود، وبقدر ما يضع المرء كل مخاوفه على أمن الحرمين وأهل الحرمين، بقدر ما يبدو أن أي اختلال يصيب نظام آل سعود سيكون تنفيسا عن المسلمين في أماكن كثيرة.

قضى الله أن يهلك المجرمين بكيد من عند أنفسهم (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله)



العلاقة بين الحاكم والمحكوم 1

البشير عصام المراكشي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

اختلطت المفاهيم الشرعية في هذا العصر، والتبس الحق بالباطل في أذهان الناس، مع كثرة الاتجاهات الفكرية، وتنوع مشاربها، وسهولة إيصالها أفكارها للناس -مهما تكن درجة سطحيتها أو تفاهتها- بسبب فورة مواقع التواصل، التي هي إعلام من لا إعلام له!

ويتعزز انتشار هذه الأفكار الهدامة، إذا كان من ورائها عملٌ منظم، أو تحميها سلطة غاشمة، أو توافق هوى مستحكما في النفوس.

تذكرت هذا حين رأيت تعليقات بعض الأراذل على ما شهدته بعض البلدان من حملات اعتقالات بالجملة ضد العلماء والدعاة والمفكرين والصالحين، بمحض الظن والتوجس دون دليل ولا اتهام صريح ولا محاكمة، عادلة كانت أو ظالمة!

نعم .. اعتقال أناس «يُظن» أنهم يشكلون خطرا فكريا على الدولة، مع أنهم ليسوا من المعارضين أصلا لسياسة الدولة ولا لتوجهاتها واختياراتها!

وإلى هنا فلا إشكال، إذ الظلم موجود في الناس دائما، ولا يعسر علينا أن نفسره -وإن كنا لا نعذر الظالم- بالمصالح الشخصية، أو بشهوة السلطة، أو بهوى النفس أو نحو ذلك. ولكن الكارثة حين نجد من يفرح بذلك

الظلم ويسوغه بمسوغات شرعية، ويستدل له بقواعد المصلحة والمفسدة - مع أنه من أكثر الناس ظاهرية، وجمودا على النصوص الأثرية وأقوال السلف!

وهذا التلبيس الفكري، المتدثر برداء العلم الشرعي، يحتاج إلى وقفات كثيرة، لأنه نخر البناء العلمي لدى كثير من متشرعة العصر، كما تنخر الآكلةُ العضو المريض، ولن يكفي ردّ واحد في مقال يتيم. ولذلك سأتحدث في سلسلة من المقالات عن بعض ما يحتاج إلى البيان في التصور الإسلامي للعلاقة بين الحاكم والمحكوم.

مقدمة في التأصيل الفقهي

من اللازم أن نقرر أولا أن جميع ما سيأتي متعلق بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم داخل الدولة المسلمة المحكّمة للشريعة إجمالا، وأما أحكام التعامل مع الحاكم غير المسلم، أو الذي لا يحكم بشرع الله فغير مقصودة في هذه المقالات.

ومن اللازم أيضا أن نذكّر بأن مباحث السياسة الشرعية عرفت عبر تاريخ أمة الإسلام كثيرا من التبديل بل التحريف، بسبب ضغط الواقع الاستبدادي في كثير من الدول الحاكمة. ولذلك لا بد من الحذر من بعض التأصيلات المنحرفة لبعض المتأخرين الذين تبنوا نظرية تعظيم ولي الأمر مطلقا، جلبا لمصلحة الأمن والاستقرار السياسي، ودرءا لمفسدة الفتنة والصراع على السلطة. ثم تطور الأمر -عند الكثيرين- من تأصيل منضبط بقاعدة المصلحة، إلى تسويغ للظلم والجور السياسي، فصار السلطان فوق النقد، يُدعى له بالنصر والتأييد، ويمدح بالحق والباطل ..

ولأجل ذلك كله، لا بد من الرجوع عند بحث مسائل السياسة الشرعية إلى الأمر الأول، الذي جاءت به نصوص الكتاب والسنة، واستقر عليه عمل الصحابة المكرّمين، بعيدا عن التأصيلات الظرفية، التي ارتبطت بواقع معين، ولم تعد بالضرورة ملائمة للواقع العصري المعقد.

ونحن إن لم نُصلح فقهَنا السياسي بتأصيلات سلفنا الصالح، اضطررنا إلى إصلاحه بتشريعات عدوّنا الحاقد - أعني: الغرب بثقافته العلمانية المهيمنة!



فالحاكم لا يحكم بحق إلهي - كما استقر عليه الأمر في الحكم الملكي الزمَني في أوروبا خلال القرون الوسطى - تختلط فيه طاعة الحاكم مع طاعة الله تعالى، وتتجسد فيه إرادة الله من خلال إرادة الحاكم، وتكون فيه معارضة الحاكم معارضة لله أو للدين. كل ذلك غير معروف في الإسلام من خلال نصوص الوحي، ولا من خلال التطبيق العملي للخلافة الراشدة.

والذي يدل على هذا المعنى هو المبدأ المشهور في بعض الأدبيات بمبدأ «الحاكمية». فالكتاب والسنة هما مصدرا التشريع، والحاكم والمحكوم معا مطالبان بالخضوع لهما، وليس للحاكم أن يشرع من القوانين إلا ما لا يخالفهما.

فالله وحده هو الذي له حق الطاعة المطلقة، والتشريع المطلق كما قال تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه﴾، فلا يقوم توحيد الله في الطاعة والعبادة إلا على أساس اعتقاد وحدانية الله في الحاكمية. وقوله تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ دليل واضح على أن الحكم والتشريع والأمر لله تعالى وحده، كما أن له الخلق سبحانه دون من سواه. ومهمة الرسل البلاغ، وطاعة الرسول تابعة لطاعة الله تعالى ومتفرعة عنها.

وعلى هذا فلا يجوز صرف نوع من أنواع العبادة للحاكم، كما قال تعالى: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾. كما لا يجوز أن يكون الحاكم عالة على أمته، لا يقوم بشيء من الوظائف التي تناط به، وأعظمها نصرة الدين وإقامة الشرع، كما قال تاج الدين السبكي في «معيد النعم»: «فمن وظائف السلطان تجنيد الجنود، وإقامة فَرْض الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى؛ فإن الله تعالى لم يولِّه على المسلمين ليكون رئيسًا آكلًا شاربًا مستريحًا. بل لينصر الدين ويُعلِيَ الكلمة».

وفي الوقت الذي صار فيه بعض المعاصرين لا يتحدثون إلا عن واجبات الرعية تجاه حاكمها، نجد كتب السياسة الشرعية تتتابع على تفصيل وظائف الحاكم المسلم وواجباته وبيان المسؤولية الملقاة على عاتقه.

طاعة ولي الأمر

في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ إشارتان مهمتان:

الأولى: أن لفظ «أولي الأمر» يشمل العلماء والأمراء، لا الأمراء وحدهم. وتجب طاعتهم إذا اتفقوا على ما لم يخالف صريح الكتاب والسنة، وإلا وجب الرد إلى الكتاب والسنة.

الثانية: أن النزاع وارد بين أولي الأمر فيما بينهم، أو بينهم وبين الأمة، فالواجب حينئذ الرجوع إلى الكتاب والسنة.

والطاعة المذكورة في هذه الآية وغيرها من النصوص مقيدة لا مطلقة. ومما يقيدها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة بالمعروف) [صحيح البخاري]، فليس للحاكم أن يأمر بمعصية الله، وإذا فعل فلا يجوز أن يطاع في ذلك.

وهذه البدهية الشرعية، هي التي كان عليها عمل الخلفاء الراشدين، فقد أُثر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة له بعد البيعة: (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيتهما فلا طاعة لي عليكم). فأين هذا من الطاعة المطلقة التي يقررها بعض المعاصرين، حتى يؤول بهم الأمر إلى تأويل النصوص لتوافق هوى الحاكم، وتسوّغ اختياراته؟!

وقد وردت نصوص السنة النبوية بتقييد طاعة الحاكم بأمور، منها:

إقامة الصلاة التي هي عمود الدين، لحديث: (شرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم. قيل: يارسول الله، أفلا ننابذهم السيف؟ فقال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة) [صحيح مسلم]. ومعنى إقامة الصلاة: الدعوة إليها وأمر الناس بها وسن القوانين المساعدة على ذلك، ومعاقبة تاركها. وليس المطلوب -كما يظنه بعض الناس- إعطاء الناس حرية فعلها وعدم التضييق عليهم في ذلك، حتى يقول قائلهم: «هذه المساجد مفتوحة لمن أراد أن يصلي، فأين الإشكال؟».

إقامة كتاب الله لحديث: (اسمعوا وأطيعوا ولو عبد حبشي ما أقام فيكم كتاب الله) [صحيح مسلم]. وإقامة كتاب الله، إقامةٌ للشرع الكامل، في التوحيد والعبادات والمعاملات والسياسة الشرعية وغير ذلك.

عدم ظهور كفر بواح من الحاكم، لحديث: (وألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان) [صحيح البخاري ومسلم]، أي: فالمنازعة مأمور بها حينئذ، مع مراعاة ما ينبغي مراعاته من المصالح والمفاسد الشرعية.

فهذه القيود تدل على أن طاعة الحاكم ليست مطلقة في نصوص الشريعة، وأن الواجب على السلطة الشرعية أن تقوم بأعباء إقامة شعائر الإسلام وأركانه الظاهرة القطعية، وأن تحكم بالكتاب وتفيء إلى السنة البيضاء في علاقتها بالمحكوم وبالدول الأخرى، وألا تأمر بمعصية ولا تجور في الحكم ولا تظلم المحكومين؛ فإذا هي قصرت في هذه الأمانة، كان من المشروع لدى هؤلاء المحكومين مقاومة هذا الظلم والتعدي والمخالفة للشرع، بما يوافق مقصود الله تعالى في باب السياسة الشرعية.

وهذه المقاومة تدخل في ما يسمى «المعارضة السياسية»، والكلام على مشروعيتها هو موضوع مقالنا المقبل بإذن الله تعالى.



مالكولم إكس ضريبة الثورة

عبدالرحمن ضاحي

تعد فترة الخمسينيات والستينيات في الولايات المتحدة من الفترات التي شهدت نضال ومقاومة أشكال الاستبداد والعنصرية تجاه الأمريكان السود، وكان أبرز رموز تلك الحقبة الحاج مالك شباز الشهير بمالكولم إكس، ومارتن لوثر كينج، وكان الرمزان متقاربين في كثير من الخصائص، في اللون والكاريزما والعمر وحب الجماهير السود، حتى تشابها في نهاية حياة كل منهما، حيث اغتيل مالكولم إكس عام ١٩٦٥ ، واغتيل كينج عام ١٩٦٨.

لكن على الرغم من تقاربهما الشديد في كل شيء إلا أنهم لم يتفقا في الوسائل، وطيلة حياتهما لم يلتقيا إلا مرة واحدة كانت لبضع دقائق، التقطا فيها الصورة الشهيرة التي تجمع بينهما، وكانت بعد تحول مالكولم للإسلام السني، فكان لكينج فلسفة في المقاومة تبتعد كثيراً عن فلسفة مالكولم، حيث كانت فلسفة كينج متأثرة بغاندي الهندي في مقاومة الاحتلال البريطاني، وكانت فكرة مقاومته المركزية مستندة على عدم العنف والسلمية؛ فكان يحرص في جميع خطبه على أربعة أمور: عدم العنف، التغيير الاجتماعي، المسؤولية الفردية والجماعية، وثمن الحرية، وكان يعتمد أحيانا على العصيان المدني.

أما فلسفة مالكولم فكانت أكثر ثورية وحرارة، وكان في أول دعوته قبل انفصاله عن جماعة «أمة الإسلام»

يدعو لاستقلال السود عن أمريكا، جراء العنصرية التي عانى منها الأمريكي الأسود على مر ثلاثة قرون، وكان يرى التغيير بالقوة وسيلة لا بد منها، ويرى أن (السلمية) ضرباً من ضروب الحمق، عدل تلك الفلسفة بعد تركه لجماعة أمة الإسلام واعتناقه الإسلام السني، فصار يدعو إلى التغيير السلمي ولكن إن وُجد أي عائق فيجب مقاومته والاشتباك معه ومنعه.

مالكولم إكس:

ولد عام ١٩٢٥ لأب قس أمريكي من أصل أفريقي، وكان عضواً في جماعة قومية تدعو إلى عودة الأفارقة إلى أفريقيا، وتم قتله عن طريق دهسه تحت عجلات القطار من قبل جماعة (كوكلوكس كلان)[١] الإرهابية.

ترك مالكولم المدرسة في سن الخامسة عشر، ليصبح ذا علاقة عميقة بعالَم الجريمة، حتى دخل دوائر المخدرات وغيرها، وألقي القبض عليه زعيماً لعصابة، ظل في السجن مدة قاربت سبع سنوات، وانضم لجماعة أمة الإسلام في السجن بعد مراسلاته مع إخوانه ودعوتهم إياه لاتباع إلايجا محمد زعيم جماعة أمة الإسلام، وفي السجن كون مالكولم إكس ثقافته؛ حيث خرج من السجن بعد انقضاء مدته وبدأ في الدعوة لجماعة أمة الإسلام، وبناء على أوامر من قبل إلايجا محمد قام ببناء فروع للجماعة في كافة أنحاء أمريكا، مما جعله شخصية عامة مهمة.

ظل في جماعة أمة الإسلام ما يقارب اثني عشر عامًا، حتى نشب خلاف بينه وبين محمد إلايجا نتج عنه خروجه من جماعة أمة الإسلام وأسس منظمته الخاصة، وتحول بعد ذلك للإسلام السني بعد رحلة حجه إلى مكة وعدة بلدان عربية وأفريقية، إلى أن جاء يوم ١٢ فبراير ١٩٦٥، واغتيل على مسرح في نيويورك وهو يخطب بين الجماهير، وأشارت أصابع الإتهام إلى إلايجا محمد وجماعته.

تعد رحلة الحج التي قام بها مالكولم إكس بعد طرده من جماعة (أمة الإسلام) سبباً رئيساً في تحوله إلى الإسلام السني، وتغيير الأفكار العنصرية بأفضلية الرجل الأسود على الأبيض، التي كان ينشرها وفقاً لما تعلمه من إلايجا محمد، واعتدلت وجهة نضاله بترك العنصرية وفقاً لما لاقاه من أخوة وكرم الرجل الأبيض العربي في الحج فقال: «ذلك الصباح بدأت أعيد النظر في تقويمي لـ(الرجل الأبيض)، وأدرك أننا نستعمل عبارة (الرجل

(١) منظمة عنصرية، تأسست عام (١٨٦٦م)، وتؤمن بتفوق العرق الأبيض ومعاداة الأمريكان الأفارقة.

الأبيض) لا نقصد اللون وإنما نقصد المواقف والمعاملة.. عندما نقول (رجل أبيض) في أمريكا نعني مواقف خاصة ومعاملة خاصة للإنسان الأسود ولكل من ليس بأبيض، ولكنني في العالم الإسلامي وجدت رجالاً بيضاً أكثر تلقائية في إخائهم من أي شخص آخر)[٢].

مارتن لوثر كينج:



ولد مارتن لوثر كينج عام ١٩٢٩ لأب قس أمريكي، عاش لوثر في عائلة من الطبقة الوسطى، استطاعت أن تؤمّن له حياة كريمة بالرغم من العنصرية السائدة وقتها، أكمل تعليمه الجامعي من كلية مورهاوس بولاية جورجيا حيث مكان نشأته، كان مهتماً بفن الخطابة، وتبوأ المراتب الأولى في مسابقات البلاغة السياسية، فاستكمل دراسته اللاهوتية وحصل على بكالوريوس في علم اللاهوت، وفي عام ١٩٥٥ ناقش رسالته في الفلسفة بجامعة بوسطن ونال درجة الدكتوراه.

حصل عام ١٩٦٤ على جائزة نوبل للسلام لنضاله السلمي! فكان بذلك أصغر رجل في التاريخ يفوز بهذه الجائزة، وفي ١٤ فبراير عام ١٩٦٨، اغتيل مارتن لوثر على يد أحد المتعصبين البيض بينما كان يستعد لقيادة إحدى المسيرات.

بعد قراءة لتاريخ نضال الأمريكيين من ذوي الأصول الأفريقية ضد العنصرية ومقاومتها، تجد انتقاصاً متعمداً من وسائل الإعلام الأمريكية لمالكولم إكس لحساب مارتن لوثر كينج، وتصدير كينج كأنه كان يناضل بمفرده للحصول على حقوق السود داخل الولايات المتحدة، حتى أن كينج له إجازة في الولايات المتحدة باسمه خصيصاً! في حين أن شعبية مالكولم إكس هي الأكثر داخل أوساط الأمريكيين السود، وقد نشرت صحيفة (سان فرانسيسكو إكزامينر) في ملحق خاص عن مالكولم إكس بمناسبة ذكرى اغتياله، أن «مالكولم إكس حالياً يعد أكثر شعبية عند الجيل الجديد من الأفريقيين الأمريكيين من مارتن لوثر كينغ جونيور..

(٢) مالكوم إكس – سيرة ذاتية، ص٣٢٨، للمؤلف (أيلكس هايلي)، ترجمة الدكتورة (ليلى أبو زيد)، دار بيسان للنشر، الطبعة الثالثة .

بكل تأكيد لا توجد قبعات تحمل اسم مارتن للبيع.. مالكولم إكس لا يزال يشكل أهمية كبيرة للأفريقيين الأمريكيين الفقراء القابعين أسفل المجتمع الأمريكي، لأن مالكولم إكس عاش الظروف نفسها وعبر عن المرارة والإحباط اللذين يعانون منهما حتى الآن، بينما عاش مارتن حياة مرفهة ولم يعان الفقر»[٣].

حتى سيرة مالكولم إكس الذاتية التي كتبها الروائي الأسود الشهير إيليكس هيلي نقلا عن مالكوم إكس نفسه لم تتوقف طباعتها حتى اليوم منذ أول طبعة لها عام ١٩٦٤والتي ترجمتها الدكتورة ليلى أبو زيد للعربية.

فلماذا تعمد تهميش مالكولم إكس على حساب مارتن لوثر كينج بهذا الشكل؟

يلخص مالكولم إكس ذلك الأمر في آخر حياته بعد تحوله للإسلام السني، عندما كان يحضر مؤتمر الزعامة المسيحية الجنوبية في ألاباما، وكان بجواره عقيلة مارتن لوثر كينج، فمال إليها وهمس لها أنه يحاول أن يساعد، وأنه يريد أن يتقدم ببديل قد يسهل على البيض قبول عروض مارتن! [٤]

كان مالكولم إكس كبش الفداء لحركة مارتن لوثر التي تصدرت مشهد النضال لحقوق السود داخل الولايات المتحدة، حيث كان يشكل مالكولم إكس بأفكاره ووسائله البديل السيئ للحكومة الأمريكية، فلا تجد بُداً إلا الرضوخ لفلسفة كينج السلمية!

فلسفة مالكولم إكس في المقاومة كانت تختلف عن فلسفة مارتن لوثر في عنصرين رئيسيين (الأفكار، الوسائل)، أفكار لوثر كانت تطالب باندماج البيض والسود في مجتمع واحد يسوده الحب والسلام، وكان يعتمد على المظاهرات والعصيان المدني والنضال السلمي، وتعتبر خطبته المسماة «لدي حلم» من أشهر الخطب التي ألقاها من حيث المحتوى والحضور الجماهيري؛ فهذه الخطبة الشهيرة ألقاها في ١٩٦٣ وحضرها حشد جماهيري من المواطنين البيض والسود المناهضين للتمييز العنصري، والتي استمدها من وثيقة الاستقلال التي صاغها توماس غرافسن عام ١٧٧٦، ومضمونها المساواة بين البشر (All men are created equal)، ومن أشهر ما قاله في تلك الخطبة والتي تعكس أفكاره: «لدي حلم جذوره في الحلم الأميركي، فالحقيقة ظاهرة للعيان بأن جميع الناس خلقوا سواسية»، «إن أبناء العبيد وأبناء مالكي العبيد في سهول جورجيا سيحلون جمعياً على طاولة الأخوة، لدي حلم بأن أبنائي الأربعة سيعيشون مستقبلاً في وطن لا يؤسس نظرته لهم على أساس من لون بشرتهم بل على شخوصهم. لدي حلم بأنه في ألاباما حيث العنصرية البغيضة ستتشابك أيدي البنات والأولاد السود مع أيدي البنات والأولاد البيض كأخوة وأخوات».

(٣) ترجمة حمد العيسى ، جريدة المساء المغربية ، بعنوان (الحكومة الأمريكية تسعى لتهميش مالكولم إكس وتسليط الضوء على مارتن لوثر كينج).
(٤) مالكوم إكس – سيرة ذاتية ص٤٢٨.

فكانت كل أقوال وأفعال مارتن لوثر تستند إلى السلمية في مواجهة الفصل العنصري وتحقيق الإصلاح الاجتماعي، وكان من أقواله: «السلام الحقيقي ليس مجرد غياب التوتر، إنه إحقاق العدالة»، «إن ثمرة اللاعنف هي المصالحة وإيجاد المجتمع الحبيب»، «لا حاجة لأي فرد أو جماعة للخضوع للإساءة، ولا حاجة لأي فرد للجوء إلى العنف من أجل رفع الحيف»، «الكراهية تولد الكراهية، علينا مقابلة الكراهية بالمحبة»، «غايتنا ليست هزيمة الرجل الأبيض أو إذلاله، بل كسب صداقته وتفهمه لحقوقنا».



أما مالكولم إكس، فكان رافضاً لتلك الأفكار وكان دائماً ما يتهكم على أفكار مارتن لوثر؛ ففي مرة من المرات دعا مارتن الطلاب الأمريكان السود -صغار السن- لمسيرة ضد العنصرية والمطالبة بحقهم، مما نتج عنها اعتقالات وردّ وحشي من قبل الشرطة الأمريكية، علق على هذه الحادثة مالكولم اكس معترضاً على خروج تلك الفئة بقوله: «لا يجوز وضع الأطفال والنساء على طريق الأذى. كينج ليس بطلا، إنه رجل أحمق»!، وكان يرى أن طلب الاندماج هو تسول للحرية ونسيان لماضي الرجل الأبيض في سلب حرية أجيال متعاقبة من الأفارقة، وكان دائم التهكم على السود طالبي الاندماج، ويسميهم بزنوج البيت؛ حيث إنهم يضمنون بقاء مصالحهم ببقاء مصالح سيدهم.

كان مالكولم يحلم بما هو أوسع مما يحلم به لوثر؛ حيث كان يطمح في تكوين دولة خاصة بالسود داخل الولايات المتحدة متأثراً بأفكار محمد إلايجا، ومن أقوال إلايجا التي كانت تعكس أفكار مالكولم في تلك الفترة: «إن الرجل الأبيض يوشك أن يقضي على كل سواد فينا، إلى حد أنه أصبح يشعر بالذنب ويحتقر نفسه من خلال احتقاره لنا.. لننفصل عنه إذاً بمقتضى حجته نفسها، حتى لا نفقد بالاندماج ما تبقى لنا من سواد. إنه يتشدق بطيبته وكرمه ويمول حتى أعداءه؛ فلماذا لا يعيننا على إقامة دولة منفصلة نحن الذين أسلفنا له عبودية وخدمة مقرونتين بالوفاء؟ لماذا لا يعطينا أرضاً تخرجنا من أحيائه الموبوءة وتغنينا عن برامجه الخيرية سيما وهو يشتكي من تكاليفها؟»[٥].

ويكمل توضيح الفكرة مالكوم إكس نفسه فيقول: «كنت كلما تلفظت بكلمة انفصال وجدت أحدهم ينقض علي ليقول إننا نسير على نهج العنصريين والديماغوجيين البيض، فكنت أقول: إننا لا نسير على نهج

(٥) مالكوم إكس – سيرة ذاتية، ص٢٤٨.

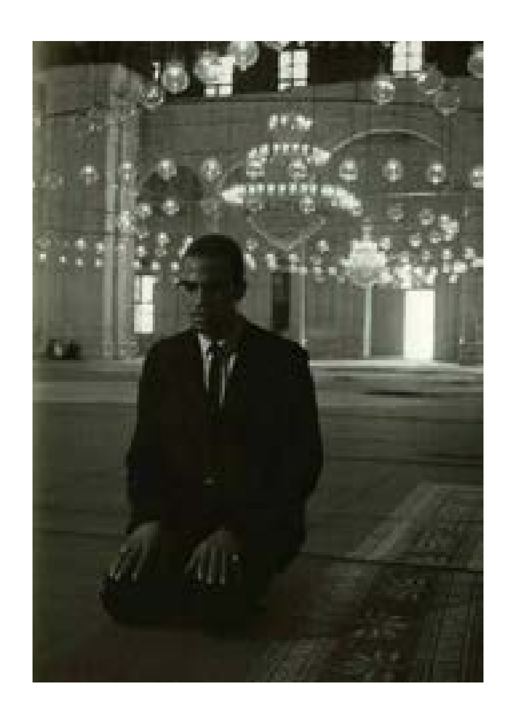
أحد.. إننا نرفض الفصل ونناضل ضده ربما أكثر منك وأن ما نريده هو الانفصال لا الفصل، وإن هناك فرقاً بين اللفظتين، إن الفصل كما يقول السيد محمد إلايجا مفروض على محكوم من حاكم يتصرف في حياته وحريته وينظمها وإن الانفصال على العكس، اختيار إرادي يتم بالاتفاق بين طرفين متساويين لما فيه مصلحتهما»[٦].

وبعد طرد مالكولم إكس من جماعة أمة الإسلام عدل عن التفكير في الانفصال بدولة للسود إلى الاقتناع بحل الاندماج؛ لكن بوسائل أخرى غير التي انتهجها مارتن لوثر، مع التفكير في تدويل القضية من خلال تدشين منظمة (الوحدة الأفروأمريكية /O.A.A.U) التي تنادي بإعادة البعث الإفريقي، بعد جولة إفريقية قابل فيها العديد من قياداتها، وقد عاد (مالكولم) بأفكار عن عالمية الصراع في سبيل الحرية ضد الإمبريالية الأمريكية، وقال (مالكولم) حينها: «إننا نعيش في حقبة ثورية، وانتفاضة الأمريكان الزنوج هي جزء من الثورة ضد الطغيان والاستعمارية التي تميّز هذه الحقبة، ومن الخطأ أن نصنّف انتفاضتنا على أنها صراع طائفي يخوضه السود ضد البيض، أو مشكلة أمريكية بالكلية؛ إننا نرى اليوم ثورة عالمية يقوم بها المظلومون ضد الظلمة، والمستغَلون ضد المستغِل».

استخدم مارتن لوثر وسائل بخلاف مالكولم إكس، كانت تعمد على العصيان المدني والمظاهرات والتأكيد على السلمية وعدم الاشتباك مع عناصر الأمن أو البيض، بينما مالكولم إكس كان يرى غير ذلك، بأن الأمر إذا استدعى الاشتباك والمقاومة فيجب حينها الاشتباك حتى يدفع الضرر، ومن أشهر أقواله: «إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فاقطع له يده حتى لا يضرب بها غيرك»، وفي لقاء تلفزيوني سأل المذيع مالكولم إكس قائلاً: كانت هناك دعوات للسود لامتلاك بنادق وتشكيل نوادي لها منذ فترة، هل ما زلت تؤيد ذلك؟»، فجاوب مالكولم: «أعتقد إذا وجد البيض أنفسهم ضحية لتلك الوحشية التي يواجهها السود في هذه البلد، ورأوا أن الحكومة إما غير راغبة أو غير قادرة على حمايتهم أعتقد أن عقول البيض ستقودهم إلى الحصول على بعض البنادق لحماية أنفسهم، والسود الآن يعملون على تطوير ذلك النوع من النضج الفكري»، وللعلم أن مالكولم إكس وأتباعه لم يطلقوا رصاصة واحدة طوال طريق نضالهم ولكن الأمر مجرد تلميح بالقابلية للعنف.

(٦) المصدر السابق، ص٢٩٣.

أصبحت الحكومة الأمريكية بين إقامة دولة منفصلة للسود وإنشاء رابطة للأفارقة على مستوى العالم، وبين طلب الاندماج والحصول على حقوق كالانتخاب وعدم الفصل في المرافق العامة! بلا شك ستختار البديل السهل لإنهاء القضية وعدم تفاقمها.



شكلت المرجعية الفكرية الإسلامية لمالكولم إكس شكلاً جديداً للصراع، فبدلاً من أن يكون الصراع مجرد صراع عرقي بين البيض والسود، ستتوسع دائرة الصراع ليكون صراعاً (دينياً - عرقياً) بين رجل أسود مسلم ورجل أبيض مسيحي، وهذا ما سيدخل الصراع في شكل جديد أعقد بمراحل وأكبر من الصراع القديم، لا سيما وأن الإسلام انتشر بين السود على يد مالكولم إكس بصورة كبيرة.

تقلبات مالكولم إكس الفكرية ساعدت مارتن لوثر كينج على ازدياد شعبيته بين الأمريكان السود، حيث كانت التحولات التي تعرض لها مالكولم إكس في حياته قبل وبعد انضمامه إلى تنظيم أمة الإسلام عنصراً سلبياً في التأثير على شعبيته، بينما مارتن لوثر لم يتغير كثيراً في أفكاره ووسائله. يقول إليكس هايلي الروائي الذي كتب السيرة الذاتية لمالكولم إكس: «إن في آخر حياة مالكولم وخاصة مع تقلباته الفكرية كان يقال من رجل الشارع الأسود: إنه لم يعد يعرف ما يؤمن به فهو لا يكاد يقول شيئاً حتى ينتقل إلى غيره»(٧).

إن فضل مالكولم إكس على قضية الأمريكان السود لا يقل عن فضل مارتن لوثر، بل إن مارتن لوثر كينج ما كان لينال نوبل أو يحظى بتلك المكانة إلا بوجود مثل مالكولم إكس في المسار الموازي له، وأختم بجزء صغير من مقالة في نيويورك تايمز نقلها أليكس هايلي في كتاب السيرة الذاتية لمالكولم إكس تقول: «إن الدكتور لوثر كينج يضمن ولاء الطبقة الزنجية المتوسطة، وإن ولاء الطبقة الزنجية الدنيا لا يضمنه إلا مالكولم إكس، وإن الزنوج يحترمون هذين الرجلين لأنهم يثقون في نزاهتهما ويعرفون أنهما لن يخوناهم أبداً».(٨)

(٧) مالكوم إكس – سيرة ذاتية، ص٤٢٠..
(٨) السابق، ص٤١٨.



الفكر المقاصدي في واقع الثوار

د. وصفي عاشور أبو زيد

التشرذم والتفرق والتفكك والتخوين والتشكيك والتربص والتعويق هي الصفات الغالبة للواقع الثوري في بلاد الربيع العربي، سواء داخل البلاد بين العاملين على الأرض، أو وخارجها بين المهاجرين، وكذلك على مستوى المجموعة الواحدة أو المجموعات والتوجهات و(الأيديولوجيات) المختلفة..

ولم يعد أمام جماهير هذه الدول في الداخل والخارج رفاهية الوقت الذي يصرفونه في هذه الأخلاق الذميمة والتصرفات القبيحة سوى أن يبحثوا عن موضع قدم يقفون عليه ويعولون عليه وينطلقون منه، على أرض مشتركة، متوحدين على الأهداف الكبرى .. وتبقى الخلافات التي بين كل فصيل بعضه وبعض أو بين الفصائل والتكوينات جميعا في ساحة الخلاف الجامع الذي خلق الله الناس عليه في ظل رعاية آدابه ودراسة إدارته والتعاطي معه برشد وفاعلية.

ولقد كان الداعي إلى قيام هذه الثورات هو استرداد كرامة الحياة والأحياء، ورفض ما يحاك ضد البشر في هذه الأوطان؛ من امتهان وظلم وإفساد ونهب للأموال الخاصة والعامة، والتعدي على الآخرين بغير حق؛ بما يمثل استردادًا لمقاصد الإسلام العليا والحفاظ عليها، فصبّت أهداف هذه الثورات مباشرة في حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض، بالإضافة للمقاصد العالية أو المفاهيم التأسيسية، مثل: الحرية، والمساواة،

والكرامة الإنسانية، والأمن الفردي والجماعي والاجتماعي، وتحقيق العيش الكريم([1])؛ حيث مثَّل إهدار مقاصد الشريعة السبب المباشر لإشعال الثورات العربية في المنطقة كلها([2])، فكانت هذه الثورات المعاصرة في خدمة المصالح والمقاصد الكلية للشريعة الإسلامية.

وينبغي ألا تغيب عنا هذه الغايات في حراكنا العملي الواقعي المتمم للثورات، سواء في البلاد التي لا زالت تتلظى بنيران المستبدين، أو تلك البلاد التي تخلصت من فراعنتها، وما زلنا في طريقنا لتكميل أهداف ما قمنا من أجله على الوجه الذي يحقق مراد الله منا في هذه الحياة.

أقول هذا بمناسبة الأجواء «الرمادية» التي نحيا فيها أوقاتًا كثيرة في بعض البلدان التي قامت فيها ثورات؛ حيث نرى مساحات وأوقات ضبابية لا تتضح فيها الرؤية، وتغيب فيها «البوصلة»، وبخاصة بعد الانقلابات الخشنة أو الناعمة التي وقعت لهذه الثورات، وانتصار الثورات المضادة إلى حين؛ بفعل المكائد والمؤامرات التي يحيكها أذناب الأنظمة الطاغية الظالمة، والتي ليس من السهل عليها ترك مناصبها ومكاسبها التي كانت تتمتع بها في غيبة من وعي الأمة، وحسبنا أن الله تعالى عبَّر عن ذلك بكلمة «ينزع» الملك، في قوله تعالى: {وتنزع الملك ممن تشاء} [آل عمران:٢٦] وفي ذلك من دلالة التمسك بالملك والحرص عليه ما لا يخفى.

وفي هذا من الآثار السلبية ما فيه؛ حيث يصاب كثير من قطاعات المجتمع بالإحباط، وتداهمهم مشاعر الريبة والشك، ويخامر خواطرَهم وهواجسهم ظنونٌ وأحاديثُ نفسٍ وخاطر بالندم على ما جرى، ولا شك أن هذه المشاعر والهواجس كلها قاصرة، لا ترقى إلى أن تضع نفسها في مرتبة الوعي بالتاريخ والواقع، ولا أن تكون قادرة على ملاحظة الغايات والمقاصد العليا التي قامت من أجلها هذه الثورات.

إن الغايات التي قامت الثوراتُ من أجلها، وقدمت الأمة من الشهداء والجرحى ما قدمت، لا يصح - بل لا يجوز - أن تغيب عن الوعي الجمعي في المجتمع، فينبغي أن تُظلِّلَ تحركاته، وتؤثر في اختياراته، وتنظم سيره، وتضبط حركته؛ ليكون سيره وفكره على هدى ونور.

ذلك؛ لأن في رعاية الفكر المقاصدي وتفعيله آثارًا وفوائد بالغة الأهمية والدقة والخطورة، في العمل السياسي عامة، والعمل الثوري المواجه الأممي منه خاصة، ونذكر منها ما يلي:

(١) راجع: الثورة المصرية بنظرة مقاصدية، وصفي عاشور أبو زيد، على موقع أون إسلام.
(٢) راجع تحقيقًا على موقع أون إسلام بعنوان: إهدار مقاصد الشريعة أشعل الثورات العربية. وهو لمحاضرة ألقيتها في نقابة أطباء مصر في أبريل عام ٢٠١١م.

أولًا: رعاية المقاصد تضبط الرؤية وتُقوِّم الاختيارات:

ولهذا كان من الأهمية بمكان أن نراعي المقاصد التي قامت من أجلها الثورات؛ لأن في اعتبارها وتفعيلها ورعايتها ضبطًا للرؤية؛ حيث تعصم العقل الجمعي من الوقوع في براثن التخبط ومهاوي التشتت وضبابية الرؤية؛ وذلك لأن التعلق بالهدف واستحضاره دائمًا يضمن صحة الاختيارات، وصوابية التصور، ويتحكم في الاختيارات التي نختارها، ويضبط المسار الثوري دون ميل عنه أو حيد إلى جهة اليمين أو الشمال.

فلا يمكن لراعي المقاصد وملاحظها أن يختار اختيارًا خطأ، أو يستمر مع اختيار خطأ إن وقع دون تصحيح وتقويم، بحيث يستقيم الاختيار مع الهدف الموجود والمقصد المرصود؛ لأن ملاحظة المقصد تصحح استخدام الوسائل وترشد الاختيارات، وتقوم الرؤية وتضبطها في مسارها الثوري الصحيح.

ثانيًا: رعاية المقاصد توحد الصف وتسرِّع في تحقيق النتائج:

ومن الفوائد المهمة في تحكيم المقاصد في الواقع الثوري - وكل واقع وكل فكرة وكل عمل ونشاط - أنها توحد الصف الثوري، بل الصف الدعوي والعملي؛ لأننا متى اتفقنا على الهدف فلن يكون بيننا خلاف؛ إذ غياب الهدف أو المقصد يحل محله النزاع والخلاف وسعة الفجوة والهوة بين التيارات، ويحل محل الهدف الأهواء الشخصية، والمآرب الحزبية، والمصالح الذاتية، والفتنة الطائفية، ويدور كل فريق حول تحقيق مصالحه الخاصة، دون اعتبار للمصلحة العامة، التي يجب أن تقدم وتُصدَّر، ويكون لها الاهتمام، وعليها التركيز، بعيدًا عن تحقيق المآرب الشخصية واتباع الهوى.



كما أن من شأن استحضار الغايات والمقاصد دائمًا أن يعمل على تحقيق النتائج والأهداف المرصودة بأقل جهد وأقل تكلفة وأسرع وقت؛ إذ الذي يغيب عنه هدفه يتخبط هنا وهناك، ويصبح فريسة لسبل الشيطان وطرق الأبالسة من الجن والإنس، ويضل ضلالًا بعيدًا.إن الذي يسير في طريق وعينه على نقطة الانتهاء، يختلف اختلافًا كبيرًا وجذريًّا عن الذي يسير على غير هدى ولا هدف ولا مقصد؛ الأول سيختصر المسافات، ويصل إلى غايته في أقرب وقت وبأقل جهد ومال، والثاني ستتخبطه السبل في مهاوي الشياطين، ويصبح فريسة للجزئيات والجدال والتنازع الذي يؤدي إلى الفشل وذهاب الريح، {ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم} [الأنفال:٤٦]

ثالثًا: رعاية المقاصد تحفظ النسيج الاجتماعي، وتحول دون الاستقواء بالعدو:

ومن أهم الفوائد التي تتحقق برعاية المقاصد في واقعنا الثوري المعاصر أنها تعمل على حفظ النسيج الوطني والاجتماعي من التحلل والتفسخ والاهتراء؛ إذ إن تحكيم الأهداف العليا والمقاصد الكبرى والمفاهيم التأسيسية يحفظ القوى الوطنية السياسية، والنخب الثقافية من التنازع، كما أن ذلك يقضي على النعرات الطائفية التي نراها في بعض البلدان التي تجري فيها ثورات، وهذا النعرات هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق المجتمع، وتهدد استقراره، وتبدد سلامته، ويحل التنازع والفرقة والخلاف والتشرذم محل التفاهم والتعاون والوحدة.

كما أن رعاية أهداف الثورة تحمل أصحابها على حفظ أمن المجتمع وسلامته، وأن تتكون مناعة ضد أي تدخل خارجي طامع، وإنما تأتي عمليات الاستقواء بالعدو الخارجي - وهي خيانة دينية ووطنية وسياسية وثورية - حين يغيب الهدف، وتتحكم الأطماع الشخصية والمصالح الذاتية المحدودة التي لا ترى إلى ذاتها، ولا تنظر إلا إلى تحت أقدامها.

وهذا سبب كبير لما نراه في بعض البلاد التي سقطت أنظمتها الطاغية الظالمة؛ حيث تتعدد الرؤى، وتتنوع الأهواء، وتتباين المصالح الشخصية، وتتعارض المآرب الحزبية؛ فيحدث الصدام، ويكون الصراع، ونسمع بقوى غير وطنية تنادي بتدخل الغرب الطامع في بلادنا؛ ليبني أمجاده ويحقق أطماعه على سُلَّم الجماجم وآلام الجرحى ودماء الشهداء!.

رابعًا: رعاية المقاصد تعين على التحديد الصحيح للمآل:

من الأمور الخطيرة وبالغة الأهمية في تصرفاتنا جميعًا أن نراعي المآل الذي سيئول إليه الفعل أو التصرف، وإذا كان هذا في التصرفات والأفعال العادية خطيرًا، فإنه يبلغ من الخطورة منتهاها إذا كان في واقع ثوري كالذي تحياه الأمة اليوم.

فكم من مصيبة حدثت وكان سببها عدم رعاية المآل!، وكم من أرواح أزهقت، ودماء سالت، وجراحٍ جرحت، لو راعينا مآل فعلنا أو نتيجة تصرفنا لما وصل الحال إلى ما وصل إليه!؛ ولهذا فإنه من الذكاء والفطنة

وتمام الحكمة أن ننظر إلى مآل الفعل قبل اختياره والتلبس به.

ولقد تنبه الإمام الشاطبي لخطورة المآلات وأهمية اعتبارها فقال في كلام مفصَّل منضبط: «النظر في مآلات الأفعال مُعْتَبَرٌ مَقْصُودٌ شَرْعًا، سواءٌ أكانت الأفعال موافقةً أو مخالِفَةً؛ وذلك أنّ المجتهد لا يحكم على فعلٍ من الأفعال الصادرةِ عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلّا بعد نَظَرِهِ إلى ما يئول إليه ذلك الفعل؛ فقد يكون مشروعًا لمصلحةٍ فيه تُسْتَجْلَبُ، أو لمفسدةٍ تُدْرَأُ، ولكنّ له مآلًا على خلاف ما قُصِدَ فيه. وقد يكون غيرَ مشروعٍ لمفسدةٍ تنشأ عنه، أو مصلحة تندفع به، ولكنَّ له مآلًا على خلاف ذلك، فإذا أُطْلِقَ القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعًا من إطلاق القول بالمشروعية .. وكذلك إذا أُطْلِقَ القول في الثاني بعدم المشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدةٍ تساوي أو تزيد، فلا يصحُّ إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجالٌ للمجتهد صَعْبُ الْمَوْرِدِ، إلا أنه عَذْبُ المذاق، مَحْمُودُ الغِبِّ، جارٍ على مقاصد الشريعة»(٣).

خامسًا: رعاية المقاصد تضبط الموازنة بين المصالح والمفاسد:



ومن الفوائد المهمة التي نستثمرها من تفعيل المقاصد في الواقع الثوري المعاصر - وكل واقع - أنها تضبط الموازنة في الاختيار بين المصالح بعضها وبعض، وبين المفاسد بعضها وبعض، وبخاصة أن واقع الثورات يحكمه - في أغلب أحكامه واختياراته - مبدأ المصلحة والمفسدة، فبتحكيم المقاصد ورعايتها في التفكير والحركة والاختيار، يمكننا أن نختار المصلحة ونرفض المفسدة، ونختار أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وندفع أعظم المفسدتين بارتكاب أخفهما.

(٣) الموافقات ٥/٤٤٠. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

وهذا ما تواتر القول به في ضوء فهم نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة عند العلماء الذين أفاضوا في الحديث عن هذا، مثل: ابن تيمية، وابن القيم، وابن عبد السلام، والشاطبي، وغيرهم(٤).

فالواقع الثوري المعاصر - وغيره - لا يخلو من مصالح ومفاسد، ومن وجود مصلحتين، ومن وجود مفسدتين في كل اختيار وكل قضية، فنجلب المصلحة وندفع المفسدة، ونحصل أعظم الخيرين، وندفع شر الشرين .. والذي يحكم ذلك هو اعتبار المقاصد وتفعيل الفكر المقاصدي، فملاحظته تبين أي المصلحتين أكبر فنحصلها، وأي المفسدتين أقل فنرتكبها.

سادسًا: رعاية المقاصد تحدد الأولويات «ما يقدَّم وما يؤخَّر»:

لكل واقع أولوياته، ولكل مؤسسة وكيان وهيئة ما يجب أن يقدَّم وما يجب أن يؤخَّر، وإن الناظر في أحكام الإسلام، وفي كل مجالاتها وأبوابها الفقهية والخلقية والعقدية يجد فيها الأهم والمهم، والواجب والفرض، والمندوب والمستحب، والمكروه والمحرم، وهكذا.

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان شعبًا؛ منها أعلى ومنها أدنى، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»(٥).

ومن الفوائد الجليلة التي تؤديها رعاية المقاصد في كل عمل وكل قول، أنها تضبط مسار اختيار الأولويات، فقد نختلف على تصرف أو عمل ما في واقع معين أنه الأولى الآن، أو هو واجب الوقت، ولكن حين نستحضر المقاصد ونستدعي الغايات ينضبط الميزان وتصح الموازنة، ونختار التصرف الأولى وفق التصور المقاصدي الذي يرشحه الواقع ويضبطه الشرع.

فمتى أدرك الشاب أولويات دينه، وأولويات واقعه فلن يقدم على أعمال ليست من واجب الوقت؛ فضلًا عما من شأنه أن يزعزع أمن المجتمعات مثلًا، ويهدد سلامتها، ويسفك دماءها، أو يؤخر عملية الإصلاح والبناء.

---

(٤) راجع مثلاً: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤٨/٢٠، و٢٩/١٦-١٧، و٩٢/٣١، وإعلام الموقعين ١٦٣/٣، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام ٢/١، و٧٥/٢.

(٥) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان.



علم التمرد

م. أحمد مولانا

حدثت ثورة في تعريب العلوم العسكرية أثناء حقبة الحروب مع إسرائيل، وبالأخص عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧، إذ انبرى عدد من العسكريين والخبراء لترجمة أبرز الكتب العسكرية آنذاك لإفادة الجيوش العربية في مرحلة إعادة البناء، وبرز من هؤلاء المقدم «هيثم الأيوبي» و«أكرم الديري»، اللذان ترجما العديد من الكتب المميزة، مثل (عن الحرب) لكلاوزفيتز عام ١٩٦٩، و(الحرب الميكانيكية) للجنرال فولر عام ١٩٦٧، و(الاستراتيجية وتاريخها في العالم) لليدل هارت عام ١٩٦٧، وقد كنت أحتفظ سابقاً بنسخة من كتاب (الذكاء والقيم المعنوية في الحرب) للجنرال الفرنسي «جون بيريه» مهداة عام ١٩٦٨ من المترجمين «الديري والأيوبي» لرئيس أركان الجيش المصري الفريق عبدالمنعم رياض.

ثم عقب حرب أكتوبر وبدء مسيرة كامب ديفيد والتطبيع مع دولة اليهود، ضعفت ثم تلاشت جهود الترجمة والتأليف في العلوم العسكرية، بينما انتشرت ترجمة الروايات وما شابه من معارف غير مرتبطة باحتياجات الأمة في صراعاتها العنيفة والمستمرة مع خصومها.

بينما على الضفة الأخرى من العالم، نجد اهتماماً كبيراً ومتزايداً في الغرب بالكتابة والتدوين في المجالات العسكرية المتنوعة، وبالأخص المرتبط منها بمستجدات الواقع؛ ففي حقبة الحرب الباردة والصراع مع السوفييت والتي اتسمت بانتشار الحروب بالوكالة وحروب الأغوار، تزايدت الكتابات الغربية في مجال مكافحة حروب العصابات، ثم مع انهيار الاتحاد السوفيتي تراجعت وتيرة الاهتمام بالكتابة في هذا الباب. ولكن بعد أحداث سبتمبر والغزو الأميركي لأفغانستان والعراق، وغرق أمريكا في مستنقعات المواجهة مع الجماعات

الجهادية والتنظيمات المقاومة، انفجر سيل هائل من الكتابة في مجال مكافحة الإرهاب ومكافحة التمرد، سواء من خلال المؤسسات العسكرية الأمريكية أو من خلال المختصين في الشؤون العسكرية .

فنشر الجيش الأميركي (دليل الميدان للجيش الأميركي وقوات المارينز لمكافحة التمرد) للجنرال بترايوس عام ٢٠٠٧، لتعميمه على قطاعاته المنتشرة في ربوع العالم الإسلامي، بل وأتاحه للنشر العام لإفادة حلفائه والمتعاونين معه، ثم نشرت الحكومة الأميركية عام ٢٠٠٩ (دليل مكافحة التمرد)، وفي العام ٢٠١٤ نشر الجيش الأميركي دليلاً جديداً بعنوان (التمرد ومكافحة التمرد- FM ٣-٢٤).

وسبق ذلك إصدار مركز الأسلحة الموحد بالجيش الأميركي نسخة عربية لأول مرة عام ٢٠٠٥ من مجلة العرض العسكري (Military Review)، والتي تصدر بالإنجليزية منذ عام ١٩٢٢، قائلاً إنه أصدرها بهدف تعزيز التعاون والتواصل مع القادة العسكريين العرب، واستمرت المجلة الفصلية في الصدور بالعربية بشكل دوري حتى عام ٢٠١١؛ إذ توقفت النسخة العربية عقب ثورات الربيع العربي بذريعة ارتفاع تكاليف الترجمة والطباعة والشحن!

صورة غلاف عدد من مجلة
العرض العسكري الصادرة عن الجيش الأميركي

وقدمت المجلة في أعدادها المتنوعة معالجات مختلفة شملت مفاهيم العقيدة العسكرية ومبادئ القتال، والمناورات الحربية، والقيادة والسيطرة، والاستخبارات وسلاح الإشارة، والاتصالات والإعلام، وعمليات النقل والتموين، كما قدمت معالجات مهمة لعمليات مكافحة التمرد في العراق وأفغانستان كتبها ضباط ميدانيون برتب الرائد والمقدم، ولم تقتصر المجلة على عرض استراتيجيات مكافحة التمرد بل تناولت مكافحة التمرد على مستوى (السرية) والقتال في القرية، وتناولت الدروس التكتيكية المستفادة من القتال في أفغانستان، وقدمت دراسات ميدانية لمكافحة التمرد في الحزام الباشتوني وفي قاطع شرق رشيد بالعراق، وطرحت استراتيجيات لمكافحة العبوات الناسفة المصنعة محلياً، واهتمت بأدق التفاصيل؛ كما في الدراسة المنشورة عن تداعيات

اعتقال (عادل المشهداني) أحد قادة المقاومة العراقية في منطقة الفضل شرق بغداد عام ٢٠٠٩، وردود أفعال سكان المنطقة على اعتقاله.

ولم يقتصر الاهتمام بالكتابة في هذا الباب على المؤسسة العسكرية الأمريكية فقط، بل أصدرت مراكز الأبحاث مثل مركز «راند» دراسات تفصيلية عن تجارب مكافحة التمرد وكيفية النجاح فيها، كما قدمت توصيات استراتيجية وميدانية تختص بالحرب في العراق وأفغانستان وباكستان والصومال ومواجهة تنظيمي القاعدة والدولة الإسلامية.

وفي ظل تلك الثورة المعرفية في الشؤون العسكرية ومجال مكافحة التمرد في الغرب، احتكرت المؤسسات العسكرية العربية المعرفة في تلك المجالات كي تسحق مواطنيها دون رحمة، وقد كشف سقوط بعض الأكاديميات العسكرية السورية في يد الثوار، عن وجود أعداد ضخمة من الكتب العسكرية غير المنشورة والمترجمة عن الروسية وغيرها من اللغات، تتناول العديد من المجالات العسكرية من الحرب الدفاعية إلى الحرب الهجومية، ومن (حرب المدن) إلى (تكتيكات القتال في مناطق الإرهاب المسلح)، مروراً بالحرب الإلكترونية وكيفية اختراق المناطق المحصنة، وقد أجاد مركز نورس للدراسات بنشره مجموعة من تلك الكتب التي غنمها الثوار من مليشيات الأسد.

ونحن اليوم في ظل موجة الثورات المضادة التي تتعرض خلالها شعوبنا المسلمة للحرب بالوكالة على يد ما يفترض بها أنها جيوش وطنية، سواء في الشام أو العراق أو اليمن أو مصر أو ليبيا أو أفغانستان أو ليبيا وغيرها من ديار الإسلام، أصبح من المهم العناية بتلك المجالات، وإدخالها في دائرة اهتمام الحركات الإسلامية وتحويلها إلى ثقافة شعبية ومجتمعية، ونحن في هذا المجال نحتاج لأن نخطو خطواتنا الأولى، إذ لم يدون شيء يذكر باللغة العربية، ولم تترجم أي من الكتب الرئيسية الحديثة بما فيها دليل الحكومة الأمريكية لمكافحة التمرد رغم صغر حجمه (٦٤ صفحة). مما يستدعي توجيه الاهتمام لترجمة هذه الكتب وإقامة المراكز البحثية المتخصصة التي تتابع الجديد في هذا المجال وتوفره لحركات المقاومة في ربوع العالمين العربي والإسلامي، فضلاً عن العناية بتدوين تجارب فصائل وتنظيمات المقاومة ونشرها كي لا تضيع خبرات الحروب والصراعات بغياب من خاضوها.



طبقات الاستبداد ومقاومة الأمة

محمد إلهامي

ثمة أمور يجب على عقل المقاومة أن تستوعبه وتهضمه جيدا، من أهمها ما سنتناوله هنا، وسنحاول الحديث عنه هنا بتبسيط شديد:

١. الناس عبر التاريخ يثورون ضد الاحتلال الأجنبي أو ضد الاستبداد الداخلي. وكان التسامح مع المستبد أوسع وأكبر بكثير من التسامح مع المحتل، ولهذا تطول عصور الاستبداد أكثر بكثير مما تطول عصور الاحتلال.

٢. قد ينقلب المستبدون بعضهم على بعض، وقد تشتعل ثورة فتسقط المستبد وتقتله بأشد الطرق وحشية، إلا أن الأهداف العامة للأمة لا تتغير، فالمستبد يعبر عن الأمة ويتحرك في سبيل أهدافها ولتقويتها، والذين ثاروا عليه إن انتصروا فهم يتحركون في نفس الأهداف وبنفس الدوافع.. لأن المستبد لم يكن ضد أمته ومناقضا لها بل كان ظالما مستبدا يستحوذ على مواردها، فإن كان قويا كان عصره رغم استبداده من عصور ازدهار أمته، وإن كان سفيها أو تافها أنفق موارد أمته على نفسه وحاشيته وبلاطه.

٣. عامة ما جرى في التاريخ من تقلبات سياسية، ثورات وانقلابات، كان تعبيرا عن صراع القوى الداخلية لا عن نفوذ القوى الخارجية الأجنبية.. فالحاكم يتغير بثورة أو بانقلاب يعبر عن اتجاه آخر وقوة أخرى هي ضمن قوة الأمة نفسها وليست صنيعة لأعداء الخارج. نعم! وُجِد من يستعين على ثورته وتمرده بدعم ومدد من الخارج الأجنبي لكن هذه الحالة قليلة بالمقارنة بما حدث من تقلبات سياسية، ثم إنها أكثر ما تكون

في مناطق الاحتكاك الحضاري بين أمتين كبيرتين، يعني في الممالك على الحدود والأطراف وليس في قلب الأمم الكبرى.

٤. كانت السلطة دائما أقوى سلاحا وأكثر عددا ورجالا من الثائرين عليها، لكن الفارق بين ما تملكه الشعوب وما تملكه السلطة لم يكن عظيما، في النهاية يتقاتلون بالسيوف والرماح والسهام ويستعملون الخيل.. نعم، تملك السلطة مجانيق وقلاع محصنة مع نوع من الشرعية والقدرة المالية وهو ما يجعلها الأعلى يدا، إلا أن الفارق في النهاية لم يكن عظيما، فبالإمكان مع نوع تدبير وتخطيط ومفاجأة واستعانة بعصبيات وقوى أخرى أن تدور معركة متكافئة مع السلطة.

٥. من سوء حظ أمتنا أن لحظة ضعفها وانهيارها الداخلي كان مواكبا للحظة نهضة أوروبية قوية، تلك النهضة مع ضعفنا كانت لها آثار شنيعة لا زلنا حتى الآن نعاني منها، فكيف تم هذا؟

أولا: رغم أن المسلمين اكتشفوا وجود الأمريكتين واكتشفوا إمكانية الانتقال من الغرب إلى الشرق بالدوران حول إفريقيا (طريق رأس الرجاء الصالح)، إلا أن من استفادوا بهذا هم الغربيون، لأن من حكموا العالم الإسلامي وقتها لم يستفيدوا من تلك الاكتشافات العلمية، بينما استطاعت أوروبا أن تسيطر على جبال الذهب والفضة والموارد الضخمة في الأمريكتين كما استطاعت أن تسيطر على موارد السواحل الإفريقية والآسيوية. نعم، كان هذا بالعنف والقهر والوحشية لكن هذا حديث آخر.

ثانيا: لم تكن استفادة الغربيين من تقدم العلوم مقتصرة على الجغرافيا، بل أخذ تقدم العلوم يلقي بتأثيره على كل المجالات، ويهمنا في سياقنا الآن أن السلطة استفادت من العلم في توسيع فارق القوة بينها وبين عموم الناس، تطورت الأسلحة التي تملكها السلطة، واتسع الفارق بينهم وبين الناس، ومن هنا استطاع الغزاة الأوروبيين رغم قلة عددهم اكتساح أمم أعظم منهم بكثير.. فالذي يحمل المسدس يستطيع مواجهة عشرات ممن يحملون السيوف. كما أن تقدم العلوم أتاح صناعة السفن التي تعبر المحيطات وتحمل أعدادا أكبر من البشر وأثقالا أعظم من الأسلحة والمعدات.. ومن هنا استطاع الغربيون السيطرة على أجزاء كثيرة من العالم في إفريقيا وآسيا مع الأمريكتين لأنهم أول من استفادوا من تقدم العلوم.

ثالثا: تواكب هذا الصعود العلمي مع طفرة اقتصادية، بدأت قبله، ومع تطور فكر سياسي ضد الكنيسة وضد الملكية.. أصحاب الأموال صاروا قوة مؤثرة، تمكنت مع الزمن من إزاحة الإقطاعيين والنبلاء ومن

منافسة الكنيسة والملكية، وصار رجال المال من أهم قوى المجتمع الغربي ومن أهم أعمدة السلطة فيه، وربما كانوا أحيانا أهم أعمدة السلطة.

٦. كانت نتيجة مجمل هذه التطورات أن الغرب وجد أمامه مساحات واسعة من الأراضي والشعوب والموارد الاقتصادية التي لا تحميها سلطات قوية، فبدأ عصر الاستعمار. ومن الطريف هنا أن كلمة «عصر الكشوف الجغرافية» تساوي كلمة «عصر الاستعمار»، رغم أن الأولى تبدو لأول وهلة شيئا جميلا وتقدما علميا والثانية تبدو شيئا شنيعا.. لكن الحقيقة أن تقدم العلم كان هو نفسه تقدم الاحتلال وسحق الشعوب والأمم الضعيفة.



٧. بعد انتصار الاحتلال الأجنبي الناهض على أمتنا أراد أن يجعل بلادنا تابعة ورهينة له، عسكريا واقتصاديا وأيضا فكريا وثقافيا.. واقتضى هذا مجهودا طويلا وخرافيا في فهم أمتنا (وهو ما قامت به حركة الاستشراق) وفي تركيعها (وهو ما قامت به جيوش الاحتلال) وفي إعادة تركيبها وصياغتها فكريا وثقافيا وهو ما قامت به النظم السياسية.. لهذا كان تاريخنا الحديث هو تاريخ «تحديثنا» لنكون مثل الغرب.

٨. هنا وقعت بأمتنا الكارثة.. لقد استطاع الاحتلال غرس نظامه فيها، بالعنف والقهر والظلم، استطاع دس حكام تابعين له في أرضنا، والسيطرة عليهم، وإنشاء طبقات حاكمة حوله، وإنشاء نخبة اقتصادية وثقافية مرتبطة به، ليتم له ربط بلادنا به لتكون تابعة له.. تلك هي قصة الشعوب الإسلامية العامة مع الاختلاف في التفاصيل.

٩. كل تقدم علمي كان يُستعمل ضد أمتنا ولتثبيت النظام الأجنبي فيها وتوسيع الفارق بينها وبين الشعوب، فاتسعت الفجوة بين عدد وقوة ونوعية السلاح الذي تملكه السلطة وبين ما يملكه الشعب، وامتلكت السلطة جهاز الإعلام (المطبعة، الراديو، التليفزيون) فصارت الشعوب في وضع التلميذ الذي يسمع ويُلقن الأفكار بعدما كانت الأمة هي من تنتج أفكارها، وتطور نظام الدولة الحديثة ليجعل الدولة متحكمة في حياة الإنسان من وقت مولده إلى وفاته، فالدولة تربيه وتصنعه في المدرسة والجامعة والوظيفة، وقد كان من قبل يولد فيربيه أهله وبيئته ثم يتعلم في الكتاب والمدرسة الأهلية التي لم تنشئها الدولة ولا تسيطر على مناهجها، ثم يعمل في نشاط اقتصادي طبقا لموهبته أو لوراثته من أهله دون تدخل من الدولة في طبيعة ما يفعل.. وهكذا!

١٠. منذ تلك اللحظة صارت أمتنا مهزومة، وصار انهيار السلطة يساوي انهيار وضعها كله لأن السلطة تتحكم في كل شيء، وربما سلمت السلطة بنفسها الأمة للمحتل بغير مقاومة. أي أن السلطة صارت هي أول وأعظم هزائمنا ونكبتنا.. فهي سلطة تبدو كمستبد وطني بينما هي على الحقيقة القناع الذي يرتديه المحتل للسيطرة على الشعوب لئلا يستفزها منظر المحتل الأجنبي. ومن الطرائف أن السلطة في بلادنا تستعمل كل قوتها وكل عنفها إن اشتعلت في وجهها ثورة شعبية فتخرج الدبابات والطائرات والأسلحة الكيمائية وفرق مكافحة «الشعب»! ثم يأتي الأجنبي فيدعمها بنفسه وجيشه ليمنع سقوطها. بينما إن جاء الاحتلال رأيت الانسحابات واختفت الجيوش وسكتت الطائرات والدبابات وتسلم الأجنبي البلاد والعباد بغير مقاومة.

١١. لو تدبرنا لرأينا أن كل انتصار في تاريخنا صنعته الشعوب وحركات المقاومة، بينما كل هزيمة وقعت بنا إنما تسببت فيها السلطة.. والسلطة في بلادنا بتحكمها في كل أنشطة الإنسان يجعل اختراق الأعداء لنا ومعرفتهم بنا اختراقا شاملا، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والفن والتربية... إلخ!

فكيف نقاوم هذا الاحتلال الشامل المطبق؟!

باختصار شديد: كل خروج للمجتمع من تحت يد السلطة هو قوة للمجتمع وخصم من السلطة.

١. انتشار الكتاتيب وتعليم القرآن وانتشار حفظته هو انتشار لمراكز تعليم ولمناهج لا تهيمن عليه السلطة. القرآن هو كتاب الأمة، ومن يتربى على القرآن ويتلقى عنه هو شخصية مضادة لكل فكر وتوجه سياسي وأخلاقي واقتصادي تريده السلطة العلمانية التابعة للمنظومة الغربية. وبقدر ما انتشر القرآن بقدر ما انتشرت مقاومة العلمنة ومقاومة الطغيان.. القرآن والطغيان لا يجتمعان!

٢. انتشار التكتلات والتجمعات والمجموعات هو تقوية للمجتمع وخصم من السلطة، السلطة تريد الناس مواطنين فرادى تتعامل معهم كأفراد لا ككتل اجتماعية.. فكل تكتل سياسي أو اقتصادي أو ثقافي لم يصدر بإنشائه تصريح من السلطة ولا يعقد اجتماعاته تحت عين السلطة ولا يجري في نشاطاته ملتزما بقوانين السلطة، ولا يحل أفراده الخلافات بينهم عن طريق السلطة.. كل اجتماع كهذا هو بذرة مقاومة، وهو إضافة للمجتمع وخصم من السلطة.

٣. السلطة جردت شعوبنا من السلاح لتستبد بهم، فكل انتشار للسلاح بيد الناس هو قوة للمجتمع وتهديد

للسلطة، وكل وقوف في وجه سلاح السلطة لدفع ظلم من السلطة أو حماية مظلوم من السلطة هو إضافة للمجتمع وخصم من السلطة. ولو أن مهندسي الأمة وعلمائها وصُناعها يحرصون على ابتكار الأسلحة الخفيفة سهلة الانتشار التي يستفيد منها عموم الناس لا السلطة لكان هذا من أهم وأعظم ما يعيد التوازن بين سلاح السلطة وسلاح المجتمع.

٤. انتشار المجالس العرفية والمحاكم العرفية التي تفصل في خلافات الناس دون الرجوع للسلطة، والتي يحترمها الناس وينصاعون لها وينفذون ما تقضي به هو إضافة للمجتمع وخصم من السلطة.



٥. انتشار التعليم المنزلي، وانتشار مجموعات التعليم المنزلي، وإنقاذ فطرة الأطفال والفتيان من تحكم الدولة ومناهجها وهيمنتها الفكرية هو إضافة للمجتمع وخصم من السلطة، وهذا الانتشار هو نفسه ما سيخلق مجموعات مستقلة وأنشطة مستقلة بل ومجالات عمل واقتصاد مستقل فيما بعد.

٦. كل نشاط اقتصادي يقوم بعيدا عن عين السلطة ورقابتها ولا يدفع لها ضرائب ولا يلتزم بسياستها هو إضافة للمجتمع وخصم من السلطة. ولا سيما الأنشطة الاقتصادية الداعمة لسائر ما هو مخالف للسلطة، فلو أن تلك الأنشطة الاقتصادية يذهب ربحها لدعم الكتاتيب والمجموعات الأهلية والمحاكم العرفية والتعليم المنزلي لكانت تلك هي الخدمة العظمى لمقاومة الأمة واستقلاليتها. بل لو استطاعت الأنشطة الاقتصادية التعامل بغير عملة الدولة أو ابتكار عملة لها تحوز القبول العام لكان هذا فتحا هائلا في العلاقة بين المجتمع والسلطة.

وهكذا نرى مجال المقاومة مجال واسع ممتد يستطيع الكثيرون المشاركة فيه، بل لا مجال لإنقاذ الأمة وتغير حالها من أن يشارك مجموعها فيه، كل بسهمه وبما يستطيع.. ومن هنا تظل المسؤولية الكبرى على القادة والعلماء.. القادة هم من يصنعون المنظومات العملية ويوجهون ويديرون، فتتحول الطاقات السائلة المبعثرة إلى تيار موجه ومنظومات متكاملة متعاونة. والعلماء هم من ينتجون الأفكار ويدعمونها ويُوَجِّهون إليها ويُحَرِّضون عليها ويظللون كل عمل بالمظلة الأخلاقية التي تمنع سائر تلك الأعمال من الانحراف عن وجهتها في خدمة الأمة إلى المصالح والأغراض الشخصية أو إلى خدمة الأعداء.

وسيجد العلماء في الإسلام مادة غزيرة لتعظيم الكتلة المجتمعية بقيم صلات الرحم وحسن الجوار، ومادة غزيرة لمقاومة الظلم والوقوف أمام الظالمين، ومادة غزيرة لتثوير الطاقات وتوجيهها.

قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج: ٧٧، ٧٨]



حاجة الثوار إلى التدوين

عبد الغني مزوز

شرعت قبل فترة في كتابة مقال عن حصار مدينة حلب، والملاحم التي خاضها الثوار من أجل كسره وإنهائه، واستغربت عن شح المواد التي كتبها الثوار في هذا الصدد، بل حتى عندما قمت بالبحث بواسطة جوجل عن تفاصيل المعارك التي أطلقتها الفصائل المقاتلة واختارت لها أسماء مميزة لم أجد ما يكفي من المواد التي يمكن لأي باحث أو كاتب أو مؤرخ الاطمئنان إليها وهو يتناول أهم وأخطر المراحل في تاريخ الأمة الحديث.

فعندما تبحث مثلا عن « غزوة أبو عمر سراقب « أو « غزوة إبراهيم اليوسف» فإن النتائج الأولى للبحث ستأخذك إلى موقع قناة العالم وقناة المنار وقناة الميادين الإيرانية وغيرها من المواقع والمنصات الإلكترونية المؤيدة لنظام الأسد.

من الأخطاء الكبيرة التي يرتكبها الثوار والناشطون والكتاب المؤيدون للثورة السورية وغيرها من الثورات -ولا زالوا يرتكبونها- هي اعتمادهم على مواقع التواصل الاجتماعي في الكتابة وتوثيق الأحداث وتسجيل المواقف، مع حرص تلك المواقع على حذف معظم موادهم وإيقاف حساباتهم دون وجود أية إمكانية لاستعادتها من جديد ما يعني الضياع النهائي لكل ما نشر عليها من مواد قد يكون بعضها في غاية الأهمية، إذ يحدث كثيرا أن تمر على مقالة أو شهادة لأحد الثوار أو الناشطين يسرد فيها معلومات ومعطيات مهمة وعند عودتك إليها لاعتمادها كمصدر لموضوع تشتغل عليه تتفاجأ باختفاء الحساب المعني بما انطوى عليه من معلومات قيمة.

لا شك أن الاستخدام المفرط لمواقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك وتويتر ويوتيوب) سينعكس سلبا على مهمة توثيق فصول الثورة وتأريخ أحداثها، فبقدر ما ساهمت هذه المواقع في الامتداد الأفقي والانتشار اللحظي لقضايا الثورة؛ بقدر ما ستكون سببا في انحسارها من صفحات التاريخ وذاكرة الشعوب. إن الوتيرة التي يتم بها حذف حسابات الثوار مع مزيد من التوجه نحو تشديد الرقابة وشروط استخدامها والنشر عليها ستجعل الثورة السورية -وغيرها- في غضون عدة سنوات ثورة محدودة التوثيق وقد لا تعثر على رواية مكتوبة لأصحابها ومن عايش أحداثها إلا بشق الأنفس، بينما خصومها ومن يكيد لها يوثقون روايتهم لما يجري في آلاف الكتب والمجلات والدوريات المتخصصة. في هذه المقالة سنحاول تقديم مقترحات عملية لحفظ التراث الفكري والتوثيقي للثورات وصون أرشيفها من الضياع والاندثار.

العودة إلى المدونات



انتعشت ثقافة المدونات الإلكترونية في أواسط العقد الماضي، ولم تكد تظهر مواقع التواصل الاجتماعي حتى تم هجرها وإهمالها لحساب الوافد الإلكتروني الجديد؛ لما تتيحه هذه المنصات من سهولة في الاستخدام وسرعة في الانتشار ولطبيعتها التواصلية التي توظف أكثر وسائط الصوت والصورة والفيديو، لكن تبقى للمدونات الإلكترونية ميزاتها الفريدة، وهذه الميزات هي ما يحتاج إليه الثوار وكتابهم ومثقفوهم، فهي خدمات مجانية تقدمها عدة مواقع أفضلها blogger.com وتمكن من إنشاء مواقع شخصية، مع التحكم التام في محتواها وواجهتها وتصميمها، مع مساحة نشر غير محدودة وسهولة في إدارة لوحة تحكمها، كما أنها نادرا ما تتعرض للحذف والإغلاق.

الكتابة والنشر في المدونات يعني أن تبقى موادك محفوظة ومتاحة للباحثين والمهتمين دائما مع إمكانية طبعها أو تخزينها بصيغ متعددة مثل pdf و html وغيرها، وهناك خصائص أخرى تمتاز بها المدونات كإضافة القائمة البريدية التي تمكن متابعيك من التوصل على إيميلاتهم بكل جديدك فور قيامك بنشره. وبالتالي ينبغي على كل كتاب الثورة ومن يهتمون بتوثيق أحداثها ومساراتها-والثوار أنفسهم- أن ينشئوا مدونات

إلكترونية، ولا بأس بعد ذلك في فتح حسابات على مواقع التواصل الاجتماعي لنشر روابطها والإحالة إلى مواضيعها لكن يجب أن تبقى المدونة في صدارة العناية والاهتمام.

عشرات الآلاف بل مئات الآلاف من الحسابات التي أنشئت وتم حذفها على مواقع التواصل الاجتماعي، لو أنشئ مقابلها ألف مدونة إلكترونية نشيطة فقط لشكل ذلك ثروة فكرية وتوثيقية لا يُستهان بها، وخدمة عظيمة للباحثين والمراقبين وأجيال الأمة القادمة.

جاءت مواقع التواصل الاجتماعي فحملت معها ثقافة الإيجاز وبلاغة الصورة والاقتصاد اللغوي، فيما توارت المدونات والمنتديات وتوارت معها ثقافة التدوين المسترسل والكتابة المطولة، ما انعكس سلبا على المحتوى المعرفي العربي على الشبكة، وأثر أيضا على عادات القراء الذين باتوا يستثقلون النصوص الطويلة ويفضلون عليها التغريدات والمنشورات القصيرة. وإذا كانت هذه المواقع قد نجحت في حشد الناس ضد الحكام المستبدين، وأتاحت للجماهير تداول الأخبار والمعلومات وتحدي رقابة السلطة المحلية وتجاوز الروايات الرسمية المتهافتة، فإن ذلك لا يعني جدارتها بالتأريخ والتوثيق وائتمانها على إرث الثوار وذاكرة الثورة. وبالتالي لا بد من البحث عن بدائل لها تُمكن الباحثين من اعتمادها كمصادر لأبحاثهم ومواضيعهم، وتحفظ أرشيف الثورة وتصونه من الضياع، إذ لا يُعقل أن يصل إلينا ما كتبه هوميروس عن معارك اليونانيين والطرواديين في القرن التاسع قبل الميلاد ولا نجد مادة جديرة بالقراءة كتبها الثوار عن معارك حلب قبل سنة أو أقل !



المجلات والدوريات

كانت المجلات والنشرات سائدة خلال النصف الثاني من القرن الماضي وبفضلها وصل إلينا جزء من تراث الحركة الإسلامية، وعلى صفحاتها حُفظت تجاربها وأفكارها ومواقفها. مجلة الفجر والنداء والرسالة ونشرة الأنصار.. مازال بعضها إلى الآن في متناول الباحثين والمهتمين بقضايا الحركات الإسلامية، حيث بوسعهم نقد تجاربها ورصد مكامن الخلل والقصور في أدائها.

لقد تطورت اليوم برامج التصميم والجرافيك بما يسمح بإخراج مجلات ونشرات احترافية بموارد وإمكانيات أقل، وميزة هذه المجلات أنها سهلة الطبع والحفظ والنشر والتداول، كما أن تعطيل روابطها لا يعني ضياعها حيث يمكن إعادة رفعها في بضع دقائق، أو جمع كل أعدادها في رابط واحد، وبضغطة زر تكون قد حصلت على مادة غنية لأبحاثك ودراساتك. ومع الأسف لم يسع أي فصيل في الثورة السورية -وغيرها- لإصدار مجلات ونشرات دورية خاصة، باستثناء تنظيم الدولة الذي تألق في هذا الجانب.

وينبغي الإشارة في هذا السياق إلى التجربة المدهشة لتنظيم القاعدة في مجال النشرات والدوريات والإصدارات المكتوبة بصفة عامة؛ تجربة نوه بها كبار الباحثين في شؤون الجماعات الإسلامية مثل الباحث النرويجي توماس هيغهامر الذي قال :» وقد نشر تنظيم القاعدة في جزيرة العرب كما مدهشا من الوثائق عن نفسه بين عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤ ما يجعله أكثر جماعة عنفية وثقت أنشطتها على مر التاريخ«[١] فخلال عقد ونصف أصدر تنظيم القاعدة آلافا من الكتب والمجلات والدوريات[٢] واستطاع حفظها وأرشفتها عبر تقنيات مبتكرة فشلت معها كل أساليب الحذف والرقابة، كالموسوعات والأسطوانات التجميعية والحقائب الإلكترونية، ففي ملف واحد مضغوط جمع التنظيم معظم إنتاجه الفكري وأرشيفه الجهادي والتوثيقي ورفعه على شبكة الانترنت بحيث يتسنى لأي باحث تنزيله بنقرة زر واحدة.

المثير أكثر في تجربة تنظيم القاعدة أنه ما من كلمة ينطق بها أي من قادته إلا وتقوم مؤسساته الإعلامية الرسمية والرديفة بتفريغها على شكل نص مكتوب ومتاح للتحميل بصيغ متنوعة وأحجام متعددة، بل حتى بعض أفلامه المهمة يتم تفريغها كنصوص مكتوبة معززة بصور ومشاهد من الفيلم. كما أن كتابه البارزين مازالت مقالاتهم محفوظة إلى اليوم في كتب إلكترونية بصيغة pdf أو exe مع أن بعضهم توقف عن الكتابة قبل ١٠ سنوات كلويس عطية ويمان مخضب وعبد الرحمن الفقير واليافعي وأبو دجانة الخرساني وغيرهم.

فلو أن لكل فصيل ثوري مجلة شهرية ونشرة أسبوعية لكان ذلك أدعى لحفظ فكره تراثه ومواقفه السياسية والشرعية، فبعض فصائل المقاومة العراقية مثلا اختفت من المشهد العراقي قبل سنوات لكن مجلاتها ونشراتها باقية تشهد على وجودها وتضحياتها ومواقفها من الاحتلال وأدواته. وما يقال عن هذه الفصائل يقال أيضا على كل الجماعات الإسلامية التي اختفت ولم يعد لها وجود على مسرح الأحداث لكن تراثها يأبى أن يطويه جناح النسيان.

(١) توماس هيغهامر، الجهاد في السعودية قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب، ص٢٥

(٢) أحصيت أكثر من ٢٠ مجلة رسمية وشبه رسمية أصدرها تنظيم القادة خلال الـ١٥ سنة الماضية.

وأنا أتساءل بعد ١٥ سنة كيف يمكن لأي باحث أن يدرس الثورة السورية وفصائلها ويقيم تجربتها عندما يكتشف أن كل حساباتها على مواقع التواصل الاجتماعي قد تم إغلاقها وحذفت معها كل منشوراتها وبياناتها وتغريداتها.



المذكرات والسير الذاتية

درج السياسيون والقادة في الغرب على إصدار مذكراتهم وسيرهم الذاتية في مراحل معينة من أعمارهم؛ يسجلون فيها انطباعاتهم ومواقفهم حيال مختلف الأحداث التي مروا بها في حياتهم وأثناء أدائهم للمسؤوليات التي أنيطت بهم، وغالبا ما تكون اليوميات التي يدونونها المادة الأساسية لهذه المذكرات.

ورغم ما يعتري هذه المذكرات من مبالغة في تمجيد الذات وجنوح أصحابها عن الحياد والموضوعية والحضور الطاغي لخلفياتهم الأيديولوجية، إلا أنها تتسم بالأهمية والوجاهة لمن أراد أن يحيط بالأحداث والوقائع على نحو أعمق.

ثقافة كتابة المذكرات وتدوين اليوميات لم تنتشر كما ينبغي بين قادة وشباب العمل الإسلامي والثوري مع أنهم كانوا شهودا على مراحل خطيرة ومفصلية جديرة بتدوين وتخليد تفاصيلها، فبعضهم عايش ويلات اللجوء والمنافي والحصار وبعضهم شهد حروبا ومعارك وبعضهم مر بأهوال السجن والاعتقال، ولو سجل كل واحد ما شهده من أحداث ومواقف لتم إغناء المكتبة الثورية والأدبية، إضافة لكون هذه السير والمذكرات صكوك إدانة لجلاديهم وأعدائهم. فهل يمكن مثلا دراسة الثورة الكوبية دون الإطلاع على اليوميات التي كان تشي غيفارا يدونها.

تسجيل اليوميات والمذكرات لم يكن تقليدا خاصا بقادة الغرب وزعمائه، بل سبق إليه قادة المسلمين وفرسانهم، فقصة الفارس أسامة بن منقذ مع الكتابة والتدوين تثير الإعجاب والتقدير، هذا الفارس المثقف الذي كانت له بصمة مشرفة إبان الحروب الصليبية، ورغم كل ما قيل عن شخصيته المثيرة للجدل إلا عددا من المؤرخين أثنوا عليه وأشادوا به منهم الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء». خلف أسامة بعد وفاته أكثر

من ثلاثين كتابا بعضها يقع في عدة مجلدات، ومن بينها كتابه الشهير « الاعتبار» وهو عبارة عن مذكرات شخصية تحدث فيها بن منقذ كشاهد على حقبة الحروب الصليبية، « ويبدو الكتاب وثيقة حية من وثائق حروب الإفرنج.. لا نعرف لها شبيها»[٣] و» أغلب الظن أنه جمعه مما كان يدونه من الحوادث والأخبار في جزازات ودفاتر»[٤]، كان أسامة بن منقذ فارسا نبيلا محبا للمغامرة ومولعا بالقراءة والكتابة، وقد أورد في كتابه « الاعتبار» قصة عجيبة عن اعتراض الصليبيين لمركب أهله وهم سائرون من مصر إلى الشام فنهبوا ما فيه من مال وحلي وجواهر، ولم يفجع بذلك كفجعه بسرقتهم لكتبه التي تربو على أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة وقال بأن: « ذهابها حزازة في قلبه ما عاش[٥] وقد استفاد وليم الصوري وهو مؤرخ صليبي يتقن اللغة العربية من كتب أسامة بن منقذ المنهوبة ونسبها إليه في كتاباته[٦]. إن أسامة بن منقذ نموذج للفارس المسلم المحب للتدوين والكتابة والمخلص للكتب والقراءة، وقد ساهمت شخصيته المتفردة في كتابة أفضل بيان عن الحروب الصليبية في العصور الوسطى[٧].

الثورات والحروب ليست زخما من الأحداث والوقائع فقط بل أيضا تجارب نفسية وانطباعات شخصية وانفعالات وجدانية وهي من الأبعاد العميقة والمحددة لمعظم تلك الأحداث، ولا يمكن رصدها إلا من خلال المذكرات الشخصية والسير الذاتية التي تتضمن بوحا نزيها واعترافات صادقة من مبدعيها وكتابها. وجدير برجال وقادة العمل الإسلامي أن يدونوا يومياتهم وسيرهم الذاتية حتى لا يطوي النسيان تضحياتهم وحتى يساهم كل من جانبه في كتابة تاريخ هذه الأمة.

(٣) أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق عبد الكريم الأشتر، ص٢٠
(٤) أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق عبد الكريم الأشتر، ص٩
(٥) أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق عبد الكريم الأشتر، ص٩٦
(٦) أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق عبد الكريم الأشتر، ص١٦
(٧) أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق عبد الكريم الأشتر، ص١٦



الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد ..

ما هي غايات الجهاد الإسلاميّ ومقاصده؟ وما هي الضوابط المنظمة لهذه الفريضة العظيمة والمرتبة لاحكامها ؟ هذان سؤالان تعد الإجابة عليهما ضرورية لبناء عمل جهاديٍّ رشيد سديد، والجهل بهما يوقع في كثير من الخلط واللبس، ولا بد أن يسبقهما سؤال جوهريّ تعد الإجابة عليه تمهيداً ضرورياً، وهو: هل الجهاد في ذاته غاية أم وسيلة إلى غاية ؟

ونترك الآيات القرآنية لتجيبنا عن هذا السؤال الهام: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] ويقول جلّ شأنه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فلو تأملنا هذه الآيات لتأكد لنا أنّ الجهاد وسيلة لا غاية، فقد تحدثت الآيات الكريمات عن غايات الجهاد، وفصلت بينها وبين القتال بحتى الغائية.

فما هي غايات الجهاد؟ غايات الجهاد تتعدد، ولكنها جميعاً تصب في غاية واحدة جامعة، فمثلاً في سورة التوبة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَيُذْهِبْ

غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٦] فهذه غايات للجهاد: أن يتحقق للمسلمين نصر وشفاء لما في صدورهم، وليقع للمشركين عذاب وخزيٌ، وليعلم الله الذي صدقوا في جهادهم، وليتوب الله على من يشاء، وتبرز في آية سابقة غاية للجهاد كبيرة وهي أن يخضع أهل الكتاب لسيادة الدولة الإسلامية فيعطو الجزية عن يد وهم صاغرون، أمّا قوله تعالى: «حتى لا تكون فتنة » فمعناها حتى لا يكون شرك؛ فالقضاء على الشرك إذاً غاية كبيرة من غايات الجهاد، ولا يبعد أن يكون معنى الفتنة في إحدى الآيتين هو ألا يقع المسلمون تحت فتنة المشركين.



الغاية الأصلية من تشريع الجهاد

كل هذه الغايات وغيرها غايات مشروعة غير ممنوعة، لكنها في نهاية الأمر تصب جميعاً في غاية جامعة، هي الغاية العليا للجهاد، وهي الحكمة العظمى من تشريع القتال، ما هي ؟

هي التي اشترك في تحديدها ورسم معالمها هاتان الآيتان: الأولى قول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[الأنفال: ٣٩]. والثانية قوله عز وجل: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩]. فكيف نقاتلهم حتى لا يكون شرك، وفي ذات الوقت نقبل الجزية من أهل الكتاب والمجوس مع أن ما يصنعونه شرك ؟

الغاية الجامعة - كما يوضحها مجموع الآيتين - هي إماطة فتنة الكفر وإحلال سيادة الدين، وذلك إن لم يتحقق بالدخول في الإسلام فإنه يتحقق بالدخول في الطاعة لدولة الإسلام، ومعنى هذا أن الغاية هي باختصار (تحقيق السيادة)، سيادة الدين وسيادة الشرع، وسيادة المنهج الرباني، وسيادة الدولة التي تخضع للدين وتستظل بالشرع وتسير وفق المنهج الرباني.

فقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، لا يفهم منه إلا أن السبب الذي من أجله شرع الجهاد هو سيادة فتنة الشرك والكفر على حساب دين الله، وأن الغاية التي ينتهي إليها هذا الجهاد هي إزالة فتنة الشرك والكفر إما بزوالهما أو بزوال سلطانها وهيمنتهما، وإقرار سيادة الدين إما بدخول الناس فيه أو بدخولهم في الطاعة لسلطان شريعته ودولته.

وقول الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩]، لا يفهم منه إلا أن السبب في هذا القتال هو أن هؤلاء الذين أمرنا الله بقتالهم لا يؤمنون إيمانا حقيقيا بالله واليوم الآخر، ولا يقرون بسيادة الشرع حيث لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون بدين الإسلام الحق، وأن الغاية التي ينتهي إليها هذه القتال هي أن يدخلوا في الإسلام، أو يدخلوا في الطاعة لدولة الإسلام والإذعان لسيادة شريعته بأن يدفعوا الجزية ويلتزموا الصغار وهو الخضوع للقانون الإسلامي والدستور الإسلامي وسيادة الدولة الإسلامية.

ولأجل هذه الغاية كان الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بالدول غير الإسلامية ليس هو السلم كما زعم البعض؛ إذ إنّ هذا القول يفضي إلى إقرار فتنة الشرك، وعدم تحقيق سيادة الشريعة وعالمية الإسلام، وتعطيل جهاد الطلب المجمع على وجوب إمضائه، وليس هو الحرب كما ادعى آخرون؛ إذ إنّ هذا لا مبرر له في الحالات التي تزول فيها فتنة الشرك وتتحقق فيها سيادة الشريعة دون حاجة لقتال، ويتحول الجهاد إلى أداة لفرض العقيدة بالقوة وهذا ليس سبيله، وليس هو الدعوة مثلما يقول فريق أحب أن يتوسط بين الفريقين؛ لأنّ الدعوة أصل للعلاقة بين الأمة الإسلامية والأمم غير الإسلامية، لكن ليس أصلاً في العلاقة بين الدولة الإسلامية والدول غير الإسلامية، أمّا العلاقة الصحيحة بين الدولة الإسلامية وبين غيرها من الدول فهي (السيادة للشريعة)، فإن خضعت تلك الدول لسيادة الشريعة بالدخول في الشريعة وذلك بإعلان الإسلام، أو بالدخول في الطاعة لدولة الشريعة وذلك بدفع الجزية والتزام الصغار؛ فعندئذ يكون الجهاد قد انتهى إلى غايته، وإلا فالجهاد ماض حتى تتحقق هذه الغاية.

ولا بدّ هنا من التأكيد على حقيقة كبيرة وخطيرة، ينبني عليها كل ما سبق - وقد حاول اعداء الأمّة أن يشككوا فيها - وهي وجوب جهاد الطلب، أو وجوب ابتداء الدول الكافرة بالقتال - بعد البلاغ والبيان والدعوة- حتى ولو لم تعتد تلك الدول على الدولة الإسلامية، والأدلة على ذلك متوافرة ومتضافرة، وليس هذا مجالها.



وترتب على كون الجهاد وسيلة لا غاية، وعلى معرفة غاياته ومقاصده، ولا سيما الغاية الأصلية الجامعة؛ يترتب على هذه الحقائق الكبيرة جملة من النتائج الهامة، تعتبر ضوابط عامَّة لترشيد الجهاد، من هذه الضوابط ما يلي:

أولاً: ضرورة التقيُّد بغايات الجهاد؛ بما لا يخرج به عن مقتضيات الغاية النبيلة التي من أجلها شُرع؛ فلا يصح - بحال - أن يتلبس المجاهد بظلم أو تعدّ بما أنّه مجاهد، فمنهج الله تعالى لا يحابي أحداً مهما كانت منزلته؛ لذلك وجدنا حِبَّ رسول الله وابنَ حِبِّه يتعرض من رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا التأنيب الشديد عندما تأول وقتل من نطق بالشهادتين، «عَنْ أَبِي ظِبْيَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، يُحَدِّثُ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، قَالَ: فَصَبَّحْنَاهُمْ فَقَاتَلْنَاهُمْ، فَكَانَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِذَا أَقْبَلَ الْقَوْمُ كَانَ مِنْ أَشَدِّهِمْ عَلَيْنَا، وَإِذَا أَدْبَرُوا كَانَ حَامِيَتَهُمْ، قَالَ: فَغَشِيتُهُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِينَاهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ وَقَتَلْتُهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: « يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ » قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا مِنَ الْقَتْلِ. فَكَرَّرَهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ»[١]

وقد نزلت آية في كتاب الله تعالج هذا الأمر، قيل نزلت في واقعة أسامة، وقيل نزلت في غيره، وهي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤]، واللافت للنظر بشدّة تلك اللفتة القرآنية الرحيمة العادلة: « كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا » أي تذكروا أنكم كنتم من قبل مثل هؤلاء الذين تسارعون إلى قتلهم إذا ظفرتم بهم، فمن الله عليكم واستنقذكم من الكفر ومن الاستضعاف؛ فتبينوا إذاً ولا تحرموا عباد الله ما منّ به عليكم، قال سعيد بن جبير: معناه كنتم مستخفين من قومكم بإسلامكم، خائفين منهم على أنفسكم، فمنّ الله عليكم بإعزاز دينكم، وإظهار شريعتكم، فهم الآن كذلك، كل واحد منهم خائف من قومه، متربص أن يصل إليكم فلم يصلح إذا وصل أن تقتلوه حتى تتبينوا أمره[٢]، وقد روى البخاري معلقاً ما يؤيد هذا التفسير: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقداد: «إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل[٣].

ومن هنا وقع التفريق بين موجب القتال وموجب القتل، فلا خلاف في أنّ فتنة الكفر والشرك موجبة

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٤٤) صحيح مسلم (١/ ٩٧) مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٧٣-٧٤)

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)(٢/ ٩٧)

(٣) البخاري (٦٨٦٦)

للقتال، ومع ذلك وقع الخلاف في موجب القتل هل هو مجرد الكفر والشرك أم الحرابة مع الكفر والشرك ؟ ومن قال بأنّ الكفر موجب للقتل بذاته دون انضمام الحرابة إيليه تُعقب بالنهي عن قتل النساء والشيوخ والرهبان، وبأخذ الجزية من أهل الكتاب والمجوس وهم في حقيقة الأمر كفار مشركون؛ لذلك الذي أرجحه هو أنّ موجب القتل ليس الكفر وحده أو الشرك وحده، وإنما لا بدّ أن ينضاف إليه الحرابة، كما أرجح ما ذهب إيه البعض - وإن كان مخالفاً للجمهور - أخذ الجزية من الكفار عموماً وليس أمرها مقتصراً على أهل الكتاب والمجوس؛ أمّا مشركو العرب فلهم شأن خاص؛ لأسباب ليس هنا موضع سردها.

والإثخان في قتل الكافرين المحاربين أمر عارض يهدف لكسر شوكة الكفر لئلا يطول الصراع فتقع صدامات أشدّ، لكن بعد ذلك تعود الأمة للأصل: « فإما منا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها» وتحيق وهدم متلكات الكفار وكذلك قتل الترس كلها أحكام غير أصلية وإنما هي استثنائية؛ لذات الغرض، والاستثناء يبقى دائماً في دائرة ضيقة محاطة بقواعد سدّ الذرائع؛ لئلا يخرج بها أهل الأهواء عن حدّها ولئلا تسخر لانتهاك حدود الله وحقوق العباد.

والمقصود من هذا الاستطراد هو التأكيد على ضرورة التقيد بالغاية.



ثانياً: مراعاة حقوق الآدميين؛ انطلاقاً من شريعتنا الغراء، التي ما شرع الجهاد إلا من أجل تحقيق سيادتها وهيمنتها، فمحور مقاصد الشريعة هو حقوق الآدميين، والتي على رأسها حق الإنسان في أن يعرف ربه ويعبده، وحقه في الحياة؛ لذلك وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي الجيش الإسلاميّ الغازي، يوصيه وهو يودعه بهذه الوصية: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا، وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ... » وكان يقول لهم: «إِنَّ اللَّهَ U لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ بِإِذْنٍ وَلاَ ضَرْبَ نِسَائِهِمْ وَلاَ أَكْلَ ثِمَارِهِمْ... »[٤] وكان أبو بكر يقول لجيوشه مثل هذا الكلام ويحذرهم من قتل الرهبان أهل الصوامع: «... وَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَقْوَامًا قَدْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي هَذِهِ الصَّوَامِعِ فَاتْرُكُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا لَهُ أَنْفُسَهُمْ»[٥]

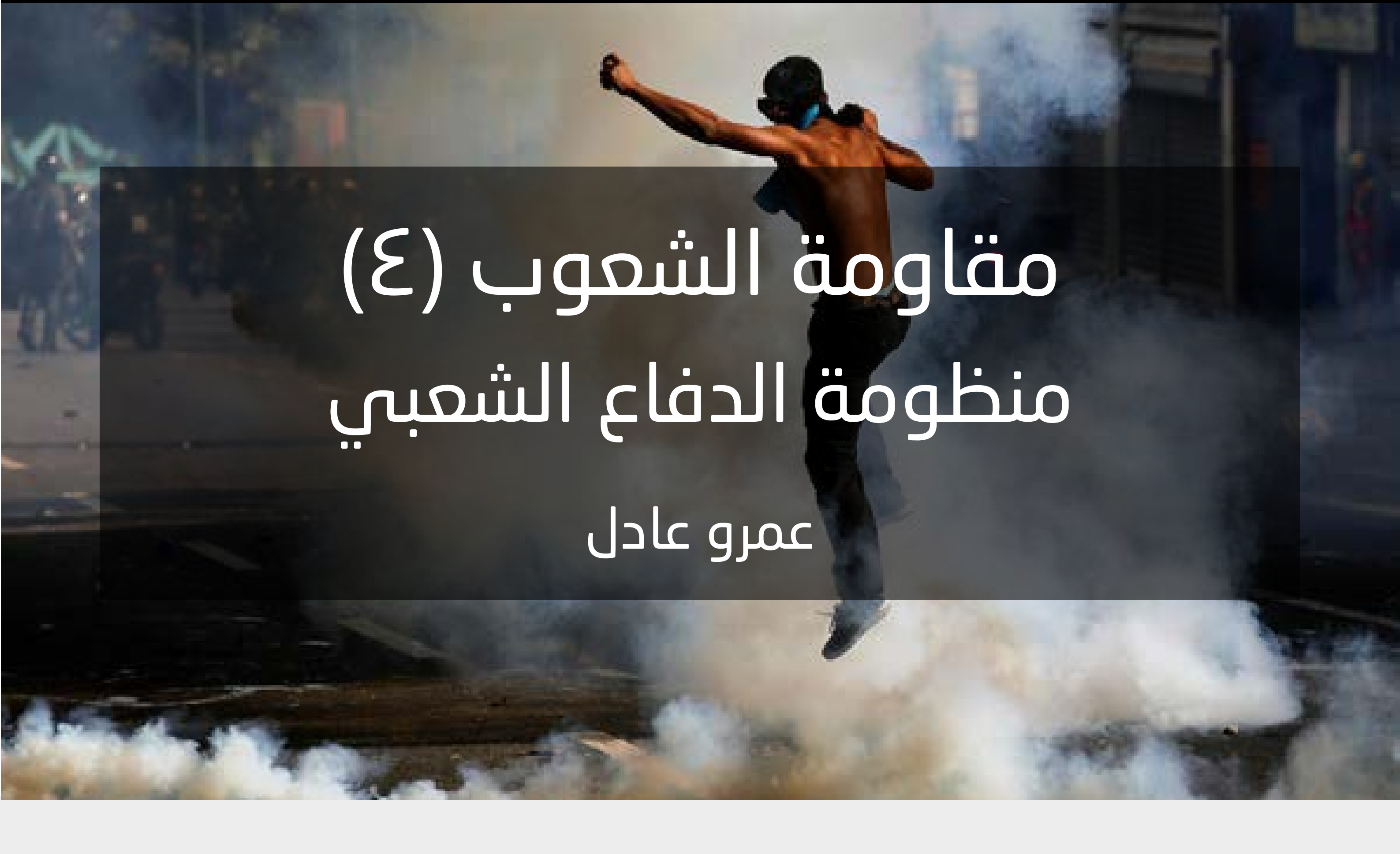
---

(٤) رواه أبو داود (٣٠٥٢)، والبيهقي في السنن(١٩١٩٨)، والصحيحة(٨٨٢)«حسن».

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٨٦١٤)

ثالثاً: الالتزام بأخلاق الجهاد الإسلاميّ، تلك التي عنى بها القلاآن الكريم فوضع أصولها قبل أن تأتي السنة القولية والعملية لتفصل وتطبق، ومن هذه النماذج القرآنية المشرقة أن المسلمين إن كان بينهم وبين أمة من الأمم عهد وميثاق، وآنس المسلمون من معاهديهم خيانة فلا يحل لهم أن يبادئوهم بنكث العهد، بل عليهم أن يعلنوهم بانقضاء العهد الذي كان بينهم حتى يكون الفريقان مستويان في العلم بانتهاء العهد، وهذا السلوك تلقاه المسلمون أمرًا مباشرًا من القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[الأنفال : ٥٨] -أي: إن خفت من قوم بينك وبينهم عهد أن ينقضوا العهد، وآنست منهم شرًّا؛ فلا تبادر بنقض العهد، ولكن انبذ إليهم عهدهم، وأعلمهم بنهاية مدته؛ حتى تكون أنت وهم سواء في العلم بانقضاء العهد، وقد نهى الله المسلمين أن يتخذوا أيمانهم دَخَلاً بينهم؛ لئلا يكونوا قدوة للناس في نقض العهود، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل : ٩٤].

وعندما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانتقام المضاعف ممن مثلوا بجثة عمه حمزة رضي الله عنه نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] ، وفي سياق تقرير حق المسلم في الردّ على العدوان نزلت الآيات لتحصر هذا الحقّ في دائرة العدل والإنصاف دون زيادة يمليها الغضب، ويندب للعفو والتسامح: « ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٣٩ - ٤٣]



مقاومة الشعوب (٤)
منظومة الدفاع الشعبي

عمرو عادل

الأصل الثابت في التاريخ البشري هو حق كل فرد في امتلاك ما يدافع به عن نفسه وبالتالي امتلاك السلاح لم يكن أبدا عملا مجرما، وكان امتلاك السلاح هو المظهر الأقوى المعبر عن الحرية، وحتى الآن في بعض بلدان العالم يعتبر عدم امتلاك سلاح ما - أي سلاح - للدفاع عن النفس مدعاة للعار، والدول الأكثر سهولة في الحصول على السلاح وامتلاكه على رأسها الولايات المتحدة واليمن وسويسرا وفنلندا وأوروجواي والنمسا وصربيا والنرويج وفرنسا، وهذه الدول تعتبر امتلاك السلاح حقا أساسيا، وفي ٢٠١٠ أكدت المحكمة العليا الأمريكية[١] على الحق في امتلاك السلاح في كافة الولايات الأمريكية واعتبرت ذلك حقا مطلقا.

إن حمل السلاح وامتلاك المجتمع له أحد المعوقات الكبرى أمام الاستبداد؛ حيث يرتبط ارتفاع معدل الاستبداد بزيادة فارق القوى بين النظام الحاكم وبين الشعب، الذي يؤدي إلى إثبات قاعدة أن السلطة المطلقة تؤدي إلى فساد مطلق، والسلطة المطلقة هي أحد المظاهر الكبرى للاستبداد.

وبالتالي وجود السلاح مع المجتمع يقلل بنسبة معتبرة فارق القوى بين المجتمع والدولة، والغريب أن

(١) نص المادة الدستورية " إن وجود ميليشيات منظمة جيدا، أمر ضروري لأمن الدولة الحرة، وإن حق الناس في امتلاك وحمل الأسلحة يجب ألا يمس"

أقطاب نظم الدولة الحديثة مثل أمريكا وفرنسا وسويسرا من أكبر الدول التي تحمي حق امتلاك السلاح وتعتبره حقا أساسيا، فهم يعرفون من التاريخ أن الأحرار هم من يمتلكون السلاح بينما غير مسموح للعبيد بذلك، بينما الدول المستبدة الديكتاتورية تحاصر بكل الوسائل هذا الحق وتعتبره منحة من النظام وكأنها تدرك خطورة ذلك على موازين القوى مع المجتمع عند حصوله على حق امتلاك السلاح.

في مصر على سبيل المثال، يوجد شعب كامل غير مسلح، ولا يمتلك الحق في امتلاك السلاح أمام جحافل النظام المدججة بكل أنواع الأسلحة، مما يجعل فارق القوى هائلا بين الطرفين؛ في تقرير جلوبال فايرباور[٢] ٢٠١٧ يشير إلى حجم التسليح الأرضي الهائل للجيش، فهو يمتلك حوالي ٤١٠٠ دبابة، محتلا المركز السابع على مستوى العالم، وحوالي ١٤٠٠٠ عربة مقاتلة مدرعة محتلا المركز الثالث بعد أمريكا وروسيا، حوالي ٩٠٠ مدفع ذاتي الحركة محتلا المركز الثامن عالميا، وحوالي ٢٤٠٠ مدفع محتلا المركز السابع عالميا، وحوالي ١٥٠٠ قاذفات صواريخ محتلا المركز الرابع عالميا. ومع معرفة أن كل قوة الجيش البشرية في الخدمة حوالي ٤٥٥ ألف وحوالي ٨٨٠ ألف في قوات الاحتياط. ومع العلم أن القوات البرية تمثل حوالي ٧٥٪ من حجم قوة الجيش؛ فيكون عدد القوات البرية حوالي ٣٢٠ ألف فرد.

وإذا اعتبرنا أن الضباط تمثل ١٠٪ من القوة البشرية، فيكون العدد المتاح للعمل المباشر حوالي ٢٩٠ ألف في القوات البرية، وإذا أخرجنا الوحدات الإدارية والخدمية المباشرة كالإدارات والمستشفيات المركزية والنوادي والكليات والمعاهد العسكرية وسائقي السيارات غير المقاتلة وغيرها، لا يمكن أن يزيد العدد المتاح للوحدات القتالية عن النصف، وبالتالي يمكن اعتبار أن القوة المتاحة للعمل داخل الوحدات المقاتلة لا تزيد عن ١٥٠ ألف فرد.

ولمعرفة العدد اللازم للعمل على المعدة المقاتلة نسبة للعدد الكلي؛ فمثلا في الكتيبة المدرعة - أصغر وحدة قتالية مستقلة - يكون العدد بها حوالي ٨٠٠ جندي كحد أدنى[٣] وعدد الدبابات الموجودة بها ٣٠ إلى ٤٠ دبابة، مما يشير إلى أن كل دبابة تحتاج إلى حوالي ١٠ أفراد كخدمة مباشرة

(٢) للاطلاع على كافة المعلومات:
https://www.globalfirepower.com/country-military-strength-detail.asp?country_id=egypt

(٣) http://ccnmtl.columbia.edu/services/dropoff/schilling/mil_org/milorgan_99.html

وغير مباشرة للمركبة وهذا العدد يمكن اعتباره ثابتا لكل المعدات.

لذلك فإن ال ٢٤ ألف مدرعة ومركبة ومدفع المذكورين بالأعلى تحتاج على الأقل إلى ٢٤٠ ألف مقاتل مباشر وغير مباشر وهو أكبر بحوالي ٤٠٪ عن العدد المتوفر، وإذا أخذنا في الاعتبار استحالة انخفاض القوة الموجودة بأي وحدة عن الثلث لاعتبارات أمنية ولحماية الوحدة؛ فإن العدد المتاح للخروج للقتال ينخفض إلى ١٠٠ ألف فرد مما يجعل المتاح حوالي ٤٠٪ فقط من الواجب تواجده. وهذا المنهج يمكن تطبيقه أيضا على القوات الأخرى كالقوات الجوية والدفاع الجوي والبحرية وسنحصل على نفس النتائج. وهذا ما رأيناه في كل المواقف الذي ظهر بها الجيش بالشارع، فهو يعتمد على الخوف داخل المجتمع من مظاهر السلاح والتواجد في مناطق ظاهرة ومحددة أكثر من اعتماده على عدد المركبات بالشوارع لعدم قدرته على استخدامها أو استخدام حتى نصفها.

هذا التحليل البسيط والقريب من الصحة يشير إلى بعض الأمور :

أن كل القوة العسكرية الموجودة ليست معدة لقتال حقيقي، ولكنها موجودة لسبب ما أرى أنه حصار المجتمع وبث الرعب بداخله من مدى القوة المسلحة إن حاول تحدي النظام .



أن غياب القوة البشرية المتمثلة في التجنيد الإجباري، يحول كل ما تملكه الدولة من سلاح إلى قطع من الحديد ليس له قيمة .

استحالة استخدام كل هذا العدد الهائل من المعدات القتالية بالعدد الحالي للقوات، وما يحل هذه المشكلة هو استدعاء كافة القوات الاحتياطية التي ترتفع بالعدد الكلي ليمكنه التعامل مع كافة هذه المعدات، وهذا الفرض يتعارض مع المستوى المتدني للغاية للتدريب وإعداد قوات الاحتياط، حيث لا يجد المستدعون من الاحتياط مكانا للنوم أو حتى ملابس للتدريب، مما يجعل فكرة أنهم يشاركون في المعارك أو استخدام المعدات بشكل فعال دربا من الكوميديا السخيفة.

إذا نحن أمام شعب غير مسلح وأمام قوة عسكرية تبدو هائلة ولكنها تمتلك عددا من نقاط الضعف القاتلة، في اعتمادها على التجنيد الإجباري من الشعب الذي تحاصره وتمارس عليه أقصى درجات الاستبداد،

كما أنها لا يمكنها الاستغناء عن التجنيد الإجباري لأنها ستفقد القوة المركزية لها ولا يصبح أمامهم غير المطارات للهروب، كما أنها لا يمكنها الحرب وتستخدم السلاح غير المصمم لحروب الشوارع فقط لتبث الرعب في نفوس الشعب.

لذلك تحتاج الثورة بعد تجهيز الأرض والمجتمع وتنظيمه كما تحدثنا في المقالات السابقة؛ تحتاج إلى شكل من أشكال الدفاع الشعبي لمواجهة ذلك وهو يبدو كبيرا ولكنه كما ذكرنا يحمل نقاط ضعف قاتلة، وإنتاج هذه المنظومة هي أهم الخطوات العملية في المرحلة الثانية من مراحل المقاومة الشعبية.

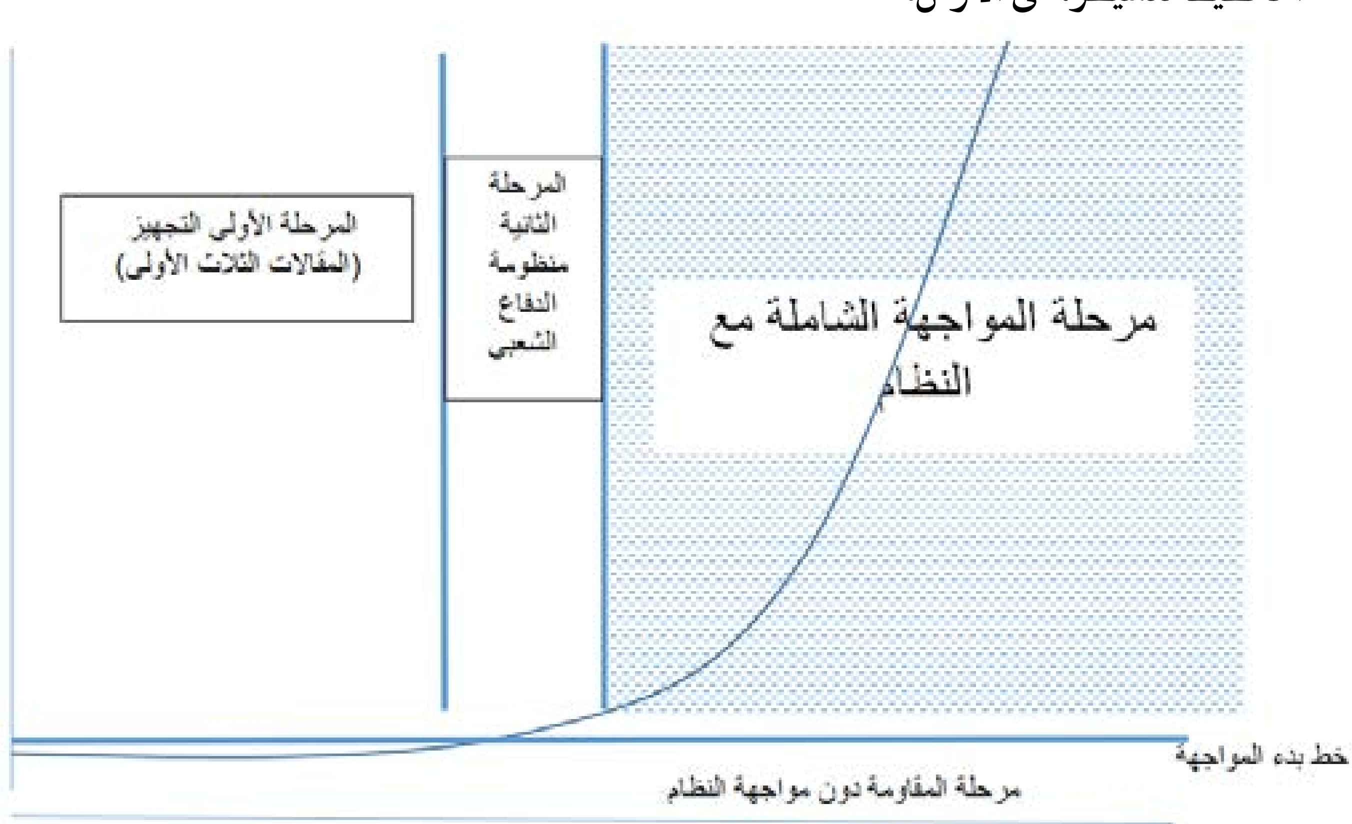
من هذا العرض تصبح محاور بناء منظومة للدفاع عن الشعب ضد هذه القوة يرتكز على أربعة محاور:

التخطيط لحصار القوة المسلحة المعادية للشعب

التخطيط لحصار القوى البشرية المعادية للثورة

التخطيط للسيطرة على مراكز إدارة القوة المسلحة (مؤسسات السلطة)

التخطيط للسيطرة على الأرض.



حصار القوة المسلحة:

نؤكد في البداية أن هذا الحديث موجه لعموم القوى الشعبية التي نعنيها منذ بدء هذه السلسلة وهي محاولة أن يستطيع كل من له انتماء للثورة للمشاركة في الفعل الثوري المنتظر وهذا ليقلل احتمالات المواجهة ويسرع من انتصار الثورة، ويقلل من احتمال سيطرة قوى سياسية مصنوعة عليها، وكما ذكرنا في المقالات السابقة فإن جمع كافة المعلومات عن الوحدات العسكرية سابق لتلك المرحلة، والمرحلة الأولى هي الأكثر طولا زمنيا والأكثر خطورة وتحتاج للكثير من الجهد والعمل، وهي تنتهي بظهور قيادات ميدانية متواصلة مع عموم الثوار وغير مرصودة أمنيا وأيضا بانتهاء جمع كافة المعلومات عن مراكز السلطة ومفاصل الطرق والوحدات العسكرية. كما أن المرحلة الثالثة لابد أن تكون شديدة القصر نظرا لطبيعة البلاد وهذا ما سنتعرض له لاحقا.

وحصار القوة المسلحة يمكن توضيحه كالتالي:

تحديد الطرق الرئيسية المؤدية للوحدات العسكرية بكل أشكالها ووضع خطط السيطرة عليها، فالطرق هي أحد أهم النقاط الاستراتيجية التي يحاول العسكر السيطرة عليها عند حدوث أي اضطرابات ليمنع التواصل بين الشعب وليسهل حركة قواته المحدودة كما ذكرنا التي يحاول إظهار سيطرته بها، ودائما ما يكون الإجراء الأول هو حظر التجوال، فمن يستطيع أولا السيطرة على مفاصل الطرق ينجح في منع الآخر من التواصل.

تحديد مسارات توريد الطعام بداية من المستودعات الرئيسية والفرعية واختيار أكثر النقاط ضعفا للاستيلاء على الطعام ومنعه من الوصول إلى الوحدات، حيث إن عدم وصول الطعام إلى الوحدات يقضي عليها ويسهل استسلامها، إن الجيوش تمشي على بطونها(٤) والكثير من المعارك انتهت بهزيمة ساحقة وسريعة لأي جيش إذا فشل في إمداد قواته بالطعام والماء، فالهدف هو تقلل المواجهات إلى الحد الأدنى واستسلام العسكر دون مواجهات واسعة أو على الأقل السعي نحو ذلك.

مصادر الوقود والطاقة للوحدات العسكرية يجب معرفتها ومنع إمداد الوحدات بها وهذه الوسائل أكثر خطورة وأسرع تأثيرا من الطعام حيث لا يستطيع أي فرد التحرك بمعداته إلى المواجهة دون التأكد من قدرة مركبته على الصمود لفترة طويلة.

(٤) مقولة مشهورة عن نابليون بونابرت

خطوط الاتصالات السلكية الخاصة بالوحدات، وتعتبر الاتصالات هي القوة الرئيسية التي تمكن العسكر من السيطرة على الأمور، ومراكز العمليات الرئيسية وغرف قادة منوب هي التي تحتوي على مراكز الاتصالات بكل الوحدات وهي في الغالب تحت سيطرة المجندين، لذلك جمع كافة المعلومات عنها لتعطيل وشل عملها وقت المد الثوري في غاية الأهمية.

معرفة خطوط التغذية للكهرباء والمياه للوحدات العسكرية وقطع الخدمة عنها في مرحلة المواجهة، إن حدوث ذلك ولو بشكل جزئي يصيب القوى العسكرية باضطراب شديد ويفقدها تركيزها ويدفعها للاستسلام.

تجهيز وتصميم أدوات هندسية للتعامل مع الآليات العسكرية وشلها عن الحركة حيث يفقد كل الموجودين داخل الآلية التركيز ويميلوا للاستسلام عند تعطل الآلية عن الحركة، ففي حالة خروج قوات ما لمواجهة الثورة يجب إعداد معدات مبتكرة وبسيطة وفعالة لتعطيل المركبات عن الحركة، المهندسين والعلميين هم الأولى والأصلح لهذا العمل المحوري.



الجنود المنتمون للثورة داخل الوحدات هم القوة الأكبر في لحظة المواجهة، ويمكنهم السيطرة على الوحدات ومنع تحرك القوات لمواجهة الشعب، واعتقال الضباط والسيطرة على المعدات، والانسحاب من الوحدات وعدم العودة إليها، ورفض الاستدعاءات للاحتياط عند بدء المواجهة كل طبقا لظروفه الميدانية.

لقد أكدت الجيوش أنها مصنوعة داخل بنية سياسية وأيديولوجية معينة ولا تقبل بغيرها وانتماؤها هذا أعلى من الانتماء للشعوب وخاصة في الدول العربية والإسلامية، ولذاك أصبحت الشعوب بلا أحد يدافع عنها ولابد أن تعود إلى الأصل بضرورة حماية نفسها بشكل منظم، وقد أثبتت بعض التجارب قدرة الشعوب على

فعل ذلك بكفاءة أعلى والشواهد كثيرة في التاريخ؛ كما حدث مع الغزو الفرنسي وبعده الإنجليزي قبل أن ينزع محمد علي السلاح من الشعب، كما حققت كومونة باريس نجاحا كبيرا في ذلك قبل سحقها في ١٨٧١.

إن إجراءات الحصار تحتاج للمعلومات وتحتاج للتخطيط وتحتاج لتكوين كتل صغيرة العدد قادرة على تنفيذ مهمة محددة واحدة وقت حدوث المد الثوري، كما أن خطورة عدم وجود جاهزية من الشعب لهذه اللحظة تؤدي إلى أن تكون المعركة بين النظام وبين القوى المنظمة فقط، وهذا يزيد من احتمال فشل الموجة الثورية، كما أنه يؤدي في أغلب الأحيان إلى استعادة الثورة المضادة لقوتها سريعا، أما في حالة اشتراك القوى الشعبية بشكل حقيقي وفاعل؛ فهذا يؤدي إلى ثورة شعبية حقيقية قادرة على سحق النظام وكسر الثورة المضادة تماما.

وأخيرا... فإن فكرة الرغبة في التنسيق الكامل والمثالية في التنفيذ هي أحد المعوقات الكبرى للنجاح في العمل الثوري، فلا يمكن حدوث ذلك بشكل عملي دون اختراقات من النظام، أعني الرغبة في التنظيم المثالي والعمل المنظم تماما، إلا أنه لو قامت جميع الكتل الحية الصغيرة غير المترابطة مع القيادات الميدانية بالتخطيط لهذا العمل والاندفاع بكل قوة لحظة اشتعال الثورة فهذا سيؤدي إلى نجاح كبير حتى بدون تخطيط مركزي، فقط افعل ما يجب عليك فعله وستأتي لحظة ما في سياق المد الثوري ستلتحم كل الجهود في مسار واحد.

أما كيفية إشعال الثورة ليتحرك الجميع فذلك له مجال آخر، ونكمل باقي الإجراءات التنفيذية للمرحلة الثانية في المقال التالي بإذن الله.



مهدي الإخوان والفرصة الضائعة!

إسلام أنور المهدي

في غابة العالم الأرضي يسود الأقوياء؛ والقوي ليس عظيم الموارد بل القادر على استغلالها في تحقيق مصلحته ومصلحة فئته وفي دفع الضرر عن ذاته وكيانه الاجتماعي. وكثير من جماعات الإسلام السياسي قوية بالمفهوم التقليدي وهو توافر الموارد؛ لكنها غير قادرة! وبالتالي يقدر عليها ذئابُ الغابة وضباعُها.

وددت حين أكتب في تأبين الكريم المجاهد «مهدي عاكف» -رحمه الله ولعن سجّانيه- أن أذكر بطولاته في الجهاد ضد الاستخراب البريطاني أيام الملكية، أو في محاولاته الإصلاحية في عهود العسكر المتتالية كما شهدنا عليها عصر مبارك وسمعنا من معاصرينا عما كان في عهود قبلها، أو حتى أسرد بعض ما حكاه عنه في بند حسن الإدارة رفقاؤه في التنظيم الدولي لجماعة الإخوان المسلمين مثل السوري «عصام العطار» والمصري «يوسف ندا»، أو حتى أدعو له بخير على أدواره الجليلة في الإصلاح بين الفئات الإسلامية المتخاصمة كما حكى عنه الجزائري «عبد الرزاق مقري»؛ لكنني في الحقيقة عند تفسير سيرة أ. عاكف لا أجد إلا لافتة براقة كبيرة مكتوب عليها المصطلح الذي صكَّه البصيرُ الأسيرُ المناضلُ «حازم صلاح أبو إسماعيل» وهو مصطلح «اللحظة الفارقة» تلك اللحظة التي عندها تتحول الدفة من خراب إلى عمار أو من حضار إلى دمار! تلك اللحظة التي يبكي عليها الكثيرون ويذكرونها بعد فواتها بلا جدوى مطلقين عليها اسم «الفرصة الضائعة»!

كان عاكف في يده مفاتيح كثيرة: عسكرية واستخبارية بحكم انتمائه للتنظيم الخاص منذ سنة ١٩٤٦، كان يدرب الفدائيين في جامعة القاهرة بالذخيرة الحية! وكانت روحه كالجمر المشتعل لا يطيق كتم غيرته حتى أنه عند اعتقاله في ديسمبر ١٩٤٨ إثر اغتيال النقراشي غار من احتفال اليهود المساجين وقَصَفَهُم بالزجاجات

الفارغة حتى عوقب بالنفي إلى سجن الطور مع مجموعته التي شاركته هذا الفعل، وكان عاكف من ضمن الذين رأوا «الهضيبي» في بداياته غير كافٍ لملء فراغ «البنا» في الجماعة ولم يكن يرتاح له في بداية أيامه.

عاكف الرجل الذي حمى الهضيبي من الاغتيال عند نزوله مطار القاهرة قادما من سوريا في ١٩٥٤ وأشهر سلاحه في وجه مدير أمن القاهرة! وفتح المطار عنوة بإجبار ضباط أمن الدولة حتى يخرج الهضيبي ويحميه من مؤامرة اغتيال محتومة!

عاكف الرجل الذي قام العسكر بتعديل قانون خاص بعد اعتقاله في ١٩٥٤؛ عدّلوه في ليلة واحدة ونصُّوا على تطبيقه بأثر رجعي ليتمكنوا من إعدامه مع ال٦ الشرفاء البرآء ورغم ذلك لم يتمكنوا من إعدامه وسجنوه ٢٠ سنة بين سجون الواحات وقنا ليعيش أطول من جلاديه ويخرج في ١٩٧٤!

خرج ليحقق المشاريع التي رسمها طوال سجنه؛ لم يكن يندب حظه بين الأسوار بل يرسم المستقبل.. خرج لينطلق عبر أسوار السجن بل أسوار مصر بأسرها ويتوسع في إنشاء وتأسيس التنظيم الدولي مجندا آلاف الشباب في العالم ومنشئا كيانا فيدراليا للإخوان يكون لتنظيم كل بلد فيه حريات كثيرة مع رابطة تجمع التنظيمات المختلفة في بوتقة واحدة دولية!

وعاد إلى مصر ليسجن مرة أخرى ٣ سنوات! ومن بعدها قرر دعم تجربة «حزب الوسط» ليخترق الوسط السياسي المصري رسميا.. واستمر حتى كان خلف تجربة الإخوان في احتواء المدونين قبل ثورة يناير!

رجل العسكرية والمخابرات والسياسة: ماذا قضى عليه في غياهب السجن السحيق؟



أين الخطأ؟! فهذا رجل جدير بإدارة دولة لا جماعة؟!. وإن كانت الجماعة في نظري أوسع وأقوى من الدولة لكنها بالطبع ليست أقدر منها! لأن القدرة الحقيقية تكمن في البشريِّ القادر على اتخاذ القرار؛ وأخطر القرارات قرار العسف حين يلزم العسف وقرار المواجهة حين تتحتم المواجهة!

حين أجالس نفسي وأسألها عن المهدي الذي اختار أن يكون عاكفا بدلا من أن يكون ثائرًا أجد الإجابة في أن مكمن الخطأ يكمن في: تضييع اللحظة الفارقة.. الخوف من الدماء يأتي بالدماء، والعصبية في الحفاظ على كيان الجماعة يذهب بريح الجماعة، والتنازلات لعقد اتفاقات تبرم بدلا منها مؤامرات! وهكذا..

مهدي عاكف ليس سيرة شخص بل تاريخ جماعة.. جماعة تمتلك مقدرات الحكم لكن لا تقدر على السيطرة.. ربما لأن شيئا دفينا هناك في تركيب الأفراد الذهني وتكوينهم المنهجي يجعلهم كما جرى لمهدي عاكف رحمه الله يشكون في قدرة الهضيبي على إدارة الجماعة ثم يتعودون مع الوقت على قراراته التي هي بين بين ثم ينعتونه في بين بينه بـ«رضي الله عنه»!

هل فكرنا ماذا كان ليجري لو رفض عاكف إرشادية الهضيبي وطلبها لنفسه؟! وقد حكى بعضهم أن موقفا متوترا جرى بينه وبين الهضيبي عند بيعته توقع فيه الجميع أن عاكف لن يبايع وسيعلن ترشحه للإرشاد من بعد البنا لكنه بدلا من ذلك خفض رأسه مقبِّلاً رأس الهضيبي!



هل لو رفع عاكف رأسه لكان عدد الإخوان المشنوقين في ١٩٥٤ قد انخفض؟ أو المضروبين بالرصاص في مذبحة طرة كان ليقل؟ أو كانت أحكام المؤبد في ١٩٥٤ لتكون سنتين وثلاثة؟ أو كان تنظيم ١٩٦٥ لم ينبت أصلا وبالتالي لم يتعلق قطب وإسماعيل على حبال المشانق ولم تجلد الغزالي على ظهرها بالسياط؟!

في مكافحة الآفات نجد المزارع الواعي لا يستخدم المبيد إلا إذا زادت تكلفة ضرر الآفة على ثمن المبيد.. فهل حقا تقل تكلفة خفض الرأس على رفعه؟ وتقل تكلفة المفاوضات عن الثورات؟ وهل تحقن التنازلات الدماء؟



يسألونك عن الجبهة الإسلامية للإنقاذ (١)

الصغير منير

هل كانت تجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ(١) ناجحة أم فاشلة؟

سؤال يطرح كثيرا، ويختلف الجزائريون في جوابه بشدة كلّ من منطلقاته والزاوية التي ينظر منها إلى ما حدث خلال قرابة ثلاث سنوات من عمر الجبهة، بل إن عددا من أنصار الجبهة وقياداتها لا يجدون حرجا في انتقاد مسارها بأشد مما يكتبه ويصرح به ألد أعدائها.

لقد كان تأسيس الجبهة حدثا مفاجئا(٢) لم تعدّ له الحركة الإسلامية في الجزائر بكل أطيافها ولم تخطّط له ولم تتوقعه بتلك السرعة والحدّة والشدة التي رافقته ولا الانتشار والتأثير الذي تلاه.

إن مسار الجبهة كان حافلا بالعطاء والبذل والتحدّيات والإنجازات، وبالإخفاقات والنكسات والأخطاء والتسرّع وسوء التخطيط. ولقد كانت حدّة الصراع وشدته وتتابع الأحداث ومكر السلطة وكيد المخابرات(٣) وسرعة التأسيس وقصر المدة بينه وبين الانقلاب وحلّ الحزب (٤) وعوامل أخرى مؤثرة بلا شك في عدم تمكن الجبهة من تنظيم صفوفها وضبط استراتيجيتها وتدارك أخطائها وترتيب علاقاتها واستثمار نجاحاتها

---

(١) سيتم اختصارا استخدام كلمة الجبهة.

(٢) أُعلِن عن تأسيس الجبهة بتاريخ ١٩٨٩/٠٢/١٨ واعتُمدت قانونيا بتاريخ ١٩٨٩/٠٩/٠٦.

(٣) حول ما يتعلّق باختراق المخابرات للجبهة ثم لأنوية العمل الجهادي بعد ذلك يرجى مراجعة : محمد سمراوي، (الإسلاميون والعسكر، سنوات الدم في الجزائر)، ترجمة: عومرية سلطاني، دار تنوير للنشر والإعلام، الطبعة الأولى ٢٠١٥. مع ملاحظة أن الكتاب فيه قدر من التضخيم لدور المخابرات ومبالغات ولكنه يبقى من أهمّ المراجع حول أساليب المخابرات في الاختراق والتوظيف والتحكّم في الحركات السياسية والجهادية.

(٤) حُلّت الجبهة بقرار قضائي يوم: ١٩٩٢/٠٣/٠٤ فكانت مدّة وجودها كلها عامين ونصفا.

وتصفية وتطهير مؤسساتها من الانتهازيين والباحثين عن المناصب والمكاسب وعملاء المخابرات، وأنا هنا أحاول تفسير ما حدث لا تبريره.

ومما يجدر أن يعلمه القارئ أن فترة رئاسة عبد القادر حشاني رحمه الله للجبهة بعد اعتقال شيوخ الجبهة إثر الإضراب السياسي الشهير(٥) وبعد انعقاد مؤتمر الوفاء بباتنة(٦) كانت مختلفة عما قبلها بشكل واضح جدّا، وظهرت أمارات حسن التنظيم والمأسسة وبدأ استدراك الأخطاء وتغيير نبرة ومحتوى الخطاب، ولكن الأحداث كانت تتسارع وتتلاحق بشكل جعل من الصعب على الجبهة برغم هذا الوعي والأسلوب الجديدين أن ترابط على كل الثغور وتسدّ كل الثغرات التي كانت مفتوحة أمامها.

إن هذا المقال ليس سردا تاريخيا يراعي تسلسل الأحداث؛ وإنما هو إضاءات على مسار حزب كبير تركت تفاعلاتُه مع أصدقائه وخصومه وأعدائه ومواقفُه وخياراتُه أثرها العميق جدا والخطير على تاريخ الجزائر المعاصر بعد ١٩٨٨ إلى يوم الناس هذا.

ولقد آثرت أن أبدأ المقال بما أراه -ويراه كثير من الدارسين والمتابعين الذين عايشوا الأحداث وتتبعوا تسلسلها- أخطاء وثغرات أدّت باجتماعها واستغلال الأعداء لها وغفلة الجبهة عن سدّها وتداركها في الوقت المناسب وبالأسلوب المناسب إلى إصابتها في مقتل.

ثمّ سوف أثنّي بما أراه نجاحا وإنجازات للجبهة، لأنهي المقال بخلاصات تفيد العاملين للإسلام وتوسّع مداركهم وتفتح لهم آفاق التبصّر والاعتبار؛ حتى لا نلدغ من الجحر نفسه مرتين بل مرّات ولا نكرّر الأخطاء بسذاجة أو استدراج أو غباء.

ولست أزعم أن قراء هذه المجلة -من الجزائريين خاصّة- سيوافقونني في كل ما سطرته في المقال، لأن أحداثاً ومواقف كثيرة حدثت في تلك السنوات الثلاث ما زالت في منطقة ظلّ بل ظلام دامس، وشهادات المشاركين في صناعة الأحداث يومئذ ما تزال شحيحة، وأرشيف الجبهة والإعلام والأمن والجيش ما يزال

(٥) بدأ يوم ١٩٩١/٠٥/٢٥ وانتهى يوم ١٩٩١/٠٦/٠٧ وكان سببه الرئيس المطالبة بتغيير قانون الانتخابات وتقسيم الدوائر الانتخابية الذي كانت الجبهة تعتبره مفصلا ليضمن فوز الحزب الحاكم.

(٦) هو مؤتمر انعقد بتاريخ: ٢٥ و٢٦ يوليو١٩٩١ بولاية باتنة، من أجل إعادة هيكلة وتنظيم الحزب وترميم ما أصابه بعد الإضراب السياسي واعتقال الشيخين كان من نتائجه تجميد عضوية المشكوك فيهم في المكتب الوطني ومجلس الشورى وانتخاب المهندس عبد القادر حشاني رئيسا للجبهة.

غير متاح بشكل عمليّ وعلميّ للباحثين والمؤرخين، وجراحات ما حدث في العشرية الحمراء[٧] لم تندمل بعدُ، وهناك تبعات قضائية وأمنية وسياسية واجتماعية لكثير من الحقائق لو تمّ كشفها، والذين لهم علاقة بها ما زالوا أحياء يتربصون أو مكلومين يبحثون عن الحقيقة.

وإنني إذ أذكر الأخطاء والثغرات ومواضع الخلل فإنني أؤكّد أن بعضها لم يكن خطأ أو انحرافا في حدّ ذاته، وإنما كان الخطأ في عدم تأطيره وترشيده والتحكم فيه، وبعضها الآخر كانت أخطاء صغيرة في بداياتها ولكن الغفلة عن معالجتها والاستهانة بآثارها هي ما جعلها تكبر لتصبح من مَقاتل الجبهة.

ولقد كانت أجهزة الاستخبارات جاهزة منذ البداية لإسقاط الجبهة واختراق قياداتها وقواعدها والتحكم في مسارها، فجاءت هذه الأخطاء مبرّرا وأداة استخدمتها هذه الأجهزة وضخّمتها وتسرّبت من خلالها.

فالجبهة إذن لم تكن حزبا سياسيا إسلاميا أُسِّس ليكون ذراعا لجماعة دعوية، ولعله من أجل ذلك تحفّظت وتوجّست منه كل الجماعات والتيارات الإسلامية يومها ولم تعلن عن تأييدها ودعمها الرسمي للجبهة.

كانت الجبهة على مستوى قيادتها الوطنية ومكاتبها الولائية وحتى البلدية خليطا من كل الجماعات والتيارات والأطياف، فقد كان فيهم الإخوان المسلمون بشقيهم المحلي[٨] والعالمي[٩] وكان فيهم السلفيون الذين كان أكثرهم في العاصمة الجزائرية وضواحيها، والقطبيون[١٠]، ومن جماعة الدعوة والتبليغ على قلتهم، وكان فيهم عدد معتبر ممن ليس له انتماء تنظيمي بل كانوا متدينين وكثير منهم كانوا أعضاء في حزب جبهة التحرير الوطني قبل أحداث أكتوبر ٨٨، وآخرون فرادى لا يعرف لهم انتماء.

ولعل الجماعة الوحيدة التي لم يشارك أحد منها في تأسيس الجبهة على مستوى القيادة هي جماعة البناء الحضاري[١١] وإن كان الشيخ محمد السعيد حضر لقاء مسجد السنة الشهير الذي كان بمثابة إعلان غير

---

(٧) العشرية الحمراء: مصطلح يطلقه الجزائريون على الفترة الممتدة من نهايات عام ١٩٩١ إلى بدايات ٢٠٠٠ بسبب ما حدث فيه من قتل ومجازر وتنكيل واختطاف.

(٨) ممثّلا في ما يسمّى في الجزائر بجماعة الشرق أو الإخوان المحلّيون، التي يرأسها الشيخ عبد الله جاب الله وهي حركة إسلامية تأسست أواسط عقد السبعينيات وتركّز نشاطها الأكبر في منطقة الشرق الجزائريّ.

(٩) ممثّلا في جماعة الإخوان المسلمين التي كان يرأسها الشيخ محفوظ نحناح رحمه الله.

(١٠) تيّار دعوي تربوي كان حضوره طاغيا في جامعات الغرب الجزائري بوهران وتيهرت خاصّة ولم يتّخذ شكلا تنظيميا هرميا مثل بقية الجماعات برغم وجود أسماء ورموز وقيادات تؤطره وتتولّى إدارته بأسلوب مرن لا يتقيّد بالهياكل التنظيمية الصلبة.

(١١) أو جماعة مسجد الجامعة المركزية، والذين كانوا قريبين من فكر وأطروحات مالك بن نبي رحمه الله ومتأثرين بها وبأدبيات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهي أقدم الجماعات الإسلامية وجودا إذ تأسست في نهاية الستينيات وعلى الأرجح عام ١٩٦٩، وترأسها بعد ذلك محمد بوجلخة ثم الشيخ محمد السعيد رحمه الله

رسمي عن تأسيس الجبهة ولكن حضوره كان من أجل تأخير الإعلان والتريث في التأسيس ورغبة في توسيع المشورة وإشراك رابطة الدعوة الإسلامية في الأمر[١٢] لقد كانت (السرعة) في تأسيس الجبهة - والتي يعتبرها كثير من رموز ودارسي الحركة الإسلامية عجلة وتسرّعا كانت له نتائج وخيمة لاحقا - و(عدم التجانس) بين المؤسسين للجبهة على المستويين الوطني والولائي - بسبب اختلاف محاضنهم التربوية ومشاربهم الفكرية وانتماءاتهم التنظيمية السابقة للجبهة - هما أهمّ وأخطر سببين أدّيا بعدُ إلى سلسلة من المواقف والخيارات تركت أثرها العميق والخطير على الجبهة وعلى الجزائر كلها.

إن الجبهة تأسست في ظروف وبيئة لم تعرف أي تجربة سياسية منظمة للحركة الإسلامية منذ الاستقلال، وكل ما كان قبل تأسيسها إنما هو مبادرات وعمل دعوي تربوي تمثّل في أرقى مظاهره في ندوات فكرية ومخيمات تربوية وتنظيمات دعوية كان أكثرها تنظيما فيما أعلم حركة الإخوان المسلمين تليها جماعة الشرق والبناء الحضاري. وبهذا فقد نسجت الجبهة على غير نموذج ولا تجربة سابقة، وهو أمر بقدر ما كان ذا أثر سلبي باعتباره يحرم الحزب الجديد من رصيد وتراكم التجارب والخبرات فإنه كان ذا أثر إيجابي؛ إذ حرّر قيادته ومناضليه من أسر التقليد واستنساخ التجارب ومكّنها من اقتحام مساحات جديدة بلا تهيّب ولا وجَل ولا توقّع خسارة ونكسات تكون قد تعرضت لمثلها تجارب سابقة.



لقد كان الانتشار السريع والتوسع الكاسح والاحتشاد الشعبي مع الجبهة انخراطا في صفوفها وتأييدا لها وحضورا في تجمعاتها ومسيراتها أمرا فاجأ حتى قيادة الجبهة، التي لم تكن تمتلك من الكوادر ولا الخطط ولا الموارد ما يمكّنها من تأطير كل هذه الحشود وترشيد حركتها ورفع وعيها والتحكم في ردود أفعالها، وقد فسّر ذلك عدد من كتبوا وتحدثوا عن هذا الأمر بخلوّ الساحة من أي مشروع سياسي إسلامي منافس[١٣]، وفسره آخرون بأنه كان نوعا من الرفض والغضب والعقاب والسخط على السلطة القائمة ومؤسسات الدولة المرتبطة بها، بينما فسره آخرون بأنه كان نتيجة خطاب الجبهة العاطفي الذي يستخدم مصطلحات الإيمان والكفر والإسلام والشريعة والجنة والنار مما ولّد تماهيا بين الإسلام والجبهة في عقول

(١٢) رابطة الدعوة الإسلامية : تأسست بعد أحداث أكتوبر ١٩٨٨، وترأسها الشيخ أحمد سحنون أحد رجالات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكانت تهدف إلى جمع شمل الدعاة والحركات الإسلامية تحت مظلّة واحدة وبعث الدعوة الإسلامية وتنظيمها والتنسيق بين مكوناتها وحماية مكتسباتها.

(١٣) لم يكن يومئذ قد تأسس أي حزب إسلامي، إذا كانت حركة الإخوان المسلمين بشقيها المحلي والعالمي ترفضان تأسيس أحزاب إسلامية ولم تبادرا إلى ذلك إلا بعد الفوز الكاسح الذي حقّقته الجبهة الإسلامية للإنقاذ في انتخابات المجالس البلدية والولائية.

ومشاعر الجزائريين الذين احتشدوا خلف الجبهة بحيث أصبحت مناصرتها مرادفة لنصرة الدين نفسه، وآخرون أرجعوا سبب ذلك إلى الوعود التي كان يقدمها قادة الجبهة وخطباؤها بالرفاه والكرامة والحرية ومحاسبة الفاسدين ومعاقبة المجرمين وتحقيق العدل بعد إقامة الدولة الإسلامية وتحكيم الشريعة، وهما المصطلحان اللذان طرقا سمع الجزائريين لأول مرة بقوة وتركيز وكثافة، وبعضهم جعل السبب كاريزما الشيخين عباسي وعلي بن حاج وعددا من قيادات الجبهة في ولايات الوطن الأخرى.

قد تكون هذه العوامل مجتمعة هي السبب في هذا الانتشار والتوسع والاحتشاد الذي بلغ كل قرية نائية في الأرياف ودَشْرة(١٤) معزولة بين الجبال، وقد تكون هناك أسباب أخرى غيرها، وربما يكون من المجازفة تقديم أحدها على الآخر، وما يزال مجال البحث مفتوحا غير مطروق بطريقة علمية منهجية يقوم بها علماء السياسة والنفس والاجتماع بناء على الأرقام والإحصائيات والتقارير الموثوقة.

ويحسن في هذا السياق أن نذكر أن من مظاهر هذا الانتشار هو الحضور الكبير للعنصر النسوي والشباب -الطلابي خاصة- والنقابي في قواعد الجبهة الشعبية ممثلا في الرابطة الإسلامية للطلبة(١٥) التي اكتسحت الجامعات والنقابة الإسلامية للعمل(١٦)، وفي دور الجبهة في الحشد النسوي للمسيرة المليونية النسائية في العاصمة(١٧) التي دعت إليها رابطة الدعوة الإسلامية بقيادة الشيخ أحمد سحنون رحمه الله احتجاجا على محاولات تغيير قانون الأسرة المستمد من الشريعة الإسلامية.



كانت مسيرات وتجمعات الجبهة أسبوعية في جميع شوارع وملاعب المدن الكبرى وعواصم الولايات وحتى البلديات أحيانا، وكانت الشعارات والهتافات التي ترفع مزعجة ومخيفة بل مرعبة لكثير من الأطراف والعصب في السلطة ومؤسسات الدولة وبعض الأحزاب ذات التوجّه اليساري خاصة. ولم تكن هذه الشعارات في الغالب الأعم مخططا لها ولا مدروسة الآثار النفسية والإعلامية والمآلات السياسية، بل كانت وليدة اللحظة ونتيجة الانفعالات والحماسة والإعجاب بالكثرة، وكان يكفي أن يرفع أحد الشباب عقيرته بشعار أو هتاف

(١٤) وتُجمع على مداشر، كلمة جزائرية تعني القرية الصغيرة أو تجمع عدد من السكان ممن تربطهم في الغالب علاقة نسب وانتماء إلى نفس القبيلة.

(١٥) تمّ تأسيسها في ربيع ١٩٩٠، في أحد مساجد العاصمة، وكنتُ أحد المشاركين في لقاء التأسيس بإشراف الأستاذ غ-سيد أحمد.

(١٦) تأسست في صيف ١٩٩٠ وفرضت نفسها بقوة في ظرف سنة واحدة حتى وإن كان قصر المدة لم يسمح لها بالانتشار في المؤسسات الاقتصادية الحساسة مثل سوناطراك وسونلغاز وقطاع المناجم.

(١٧) الخميس ٢٣ جمادى الأولى ١٤١٠هـ الموافق لـ ٢١ ديسمبر ١٩٨٩.

فإذا الجماهير ترده بحماسة واندفاع[١٨] ولأن قيادة الجبهة وجهازها الإعلامي كانا منشغلين ومستغرقين بالكلية في تجمعات ومسيرات لا تتوقف؛ فقد كان من شبه المستحيل أن يتمّ التفكير في هذا الأمر ومحاولة ضبطه وترشيده، وهو ما لم يحدث حتى وقع الانقلاب. ولأن أطرافا كثيرة في السلطة ومؤسسات الدولة وعلى رأسها قيادة الجيش وأجهزة الأمن كانت ترى نفسها معنية مباشرة بهذه الشعارات فقد زاد ذلك من خوفها وعدائها الموجود أصلا للجبهة ومشروعها والعزم على توقيفه وإفشاله بأي طريقة، ووجدت فيه أحد المبررات لسلوكها القمعي لاحقا.

ولم يكن الأمر مقتصرا على شعارات وهتافات الأنصار والجماهير، فحتى خطابات وكلمات القادة والخطباء في تجمعات ومسيرات الجبهة كانت تفتقد في كثير من الأحيان التحضير الجيد والتنسيق والهدوء والتحفظ الذي يقتضيه الحديث باسم حزب كبير مؤهل لأن يحكم بلدا مهما مترامي الأطراف مثل الجزائر يقع على مرمى حجر من أوروبا.

وكان المتحدثون والخطباء كثيرا ما ينفعلون ويستجيبون لضغط الجماهير وهتافاتها وكانت هذه الصيحات المرتجلة والعفوية في التجمعات والمسيرات كثيرا ما تكون مادة دسمة في وسائل الإعلام للتحريض على الجبهة وتشويهها واتهامها بالعنف والتطرف والغلو وتأليب قطاعات واسعة من الشعب، حتى تنفضّ أو تخاف وتتوجّس من الجبهة، ولم يكن الأمر مقتصرا على الأعداء والخصوم بل كان عدد من القيادات والدعاة على المستوى الوطني والولائي غير راضين عن مثل هذه الخطابات وينتقدونها ويطالبون بالتخفيف من حدّتها والتحفظ في إطلاقها خاصّة وأن عددا منها كان يتناول تلميحا وتصريحا جماعات وجهات وشخصيات إسلامية أو وطنية كان يمكن جدّا تجنّب مهاجمتها وتحييدها عوضا عن دفعها إلى ردود أفعال ومواقف دفاعية، خاصة وعداؤها أو خصومتها للجبهة لم تكن مبدئية عقدية حتى وإن شابها نزق وتصريحات وتموقع كانت الجبهة تراه طعنة في ظهرها و استفزازا واصطفافا مع السلطة ومؤسساتها.

أحداث وقناعات ومواقف كثيرة كانت تتشكل أيضا في الأحياء الشعبية والولايات الداخلية والمناطق البعيدة عن المركز، ولم تكن قيادة الجبهة تجد من الوقت والموارد والوسائل أو تمتلك من التخطيط ما يمكّنها من متابعته ومراقبته وترشيده والتحكم فيه، بل حتى السماع به والانتباه إليه أحيانا، فقد كانت جماعات صغيرة من ثلاثة إلى خمسة أشخاص أو أكثر تتجمّع بشكل عفوي مرتجل وبقناعات أحيانا أو دفع وتحريض جهات ما لتقوم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتضييق على المتبرجات والسكارى وغيرها من

(١٨) مثل: الجهاد.. الجهاد / لا ميثاق لا دستور، قال الله قال الرسول / دولة إسلامية بلا انتخاب / خيبر خيبر يا يهود.. جيش محمد سيعود / لا نقاش لا كلام.. حتى يسقط النظام / ستموت ستموت.. يا طاغوت يا طاغوت.

المنكرات، ولم يكن هذا الأمر ظاهرة عامة منتشرة ولم تكن بتوجيه من الجبهة ولكنه كان يصدر عن منتسبين إلى الجبهة وتحسب تصرفاتهم عليها وكان الإعلام يطير بها كل مطار، ويصور للقراء أنها تحدث في كل مدينة وحيّ، ويرفقها بالإشاعات وصور الكاريكاتير ويرسّخ في الأذهان أن أعضاء الجبهة أعداء للحريات الشخصية ومتسلطون وعدوانيون.

ومن مظاهر التفلّت وعدم قدرة الجبهة على تأطير الجماهير والشباب منهم خاصة انتشار أزياء ومظاهر لم يألفها الشعب الجزائري وليست من أعرافه ولا تقاليده الاجتماعية، فقد انتشر الزيّ الأفغاني (البنجاب) والطاقية الأفغانية وإطالة الشعر واكتحال العيون والعمامة والعصابة السوداء والسترات التي كان يلبسها المجاهدون الأفغان. وكان الشباب الذين يلبسون هذا الزيّ يؤطّرون التجمعات والمسيرات في كثير من الأحيان وتلتقط صورهم كاميرات الإعلاميين الجزائريين والأجانب وتظهرها بشكل فاقع صادم، وبرغم أن هذا الأمر يبدو جزئيا وغير مهمّ؛ ولكن الذين عاشوا تلك الفترة بكل أحداثها وزخمها يدركون ويتذكرون جيدا أن تأثيرها في لا وعي الجماهير لم يكن هيّنا على الإطلاق، خاصة أن الزي الأفغاني كان مرتبطا بشكل وثيق بفكرة الجهاد والعمل المسلّح والتمرّد على النظام.



ظاهرة الزي الأفغاني تقودنا إلى موضوع آخر خطير، وهو أن نشاط الجبهة وفوزها الساحق في انتخابات المجالس البلدية والولائية وقوة حضورها الشعبي في الشارع من خلال المسيرات والتجمعات والإضراب السياسي الشهير، ترافقت مع بداية عودة (الأفغان الجزائريين) إلى الجزائر فرادى وجماعات. وهؤلاء لم يكونوا حين رجعوا على رأي وموقف واحد، وإنما كان منهم من انخرط في الجبهة تنظيميا، ومنهم من تعاطف معها وكان يحضر فعالياتها السياسية، ومنهم من كان متعاطفا بتحفظ وحذر، وآخرون كانوا يرفضون خيار المشاركة

السياسية ويعتبرونه انحرافا ومزلقا عقديا، ويعلنون ذلك بصراحة ووضوح، وكان شريط أبي مصعب السوري بعنوان: (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) الذي يتحدث فيه عن تجربة الجبهة بانتقاد وتهجّم رائجَين يومئذ، ولكن أولئك مع ذلك كانوا يتوقعون -في يقين- صداما وشيكا بين السلطة والجبهة، ويعدّون أنفسهم ويخططون لانتهاز فرصته وإعلان الجهاد، ولقد كانت هذه النيّات معلنة ولكن الجبهة على مستوى القيادة تعاملت مع الأمر بكثير من اللامبالاة والغموض، فلم ترفضها وتتبرّأ منها، ولم تتبنّها وتحتوِ أصحابها، وكانت الخطابات والخطب تتحدث عن الجهاد بشكل غامض يؤوّله كل طرف بما يناسبه، بينما لم يرافق هذه الخطابات تخطيط ولا استشراف ولا إعداد،

وقد نجح الأفغان الجزائريون في إقناع عدد معتبر من الشباب المنتسب للجبهة بأطروحات الجهاد وترويج قناعاتهم وأدبيات الجهاد في جوّ من الحماسة والاستقطاب الشديد وفي ظروف كان الجهاد الأفغاني قد حقق فيها انتصارات كبيرة توّجت بانسحاب الاتحاد السوفييتي مهزوما مدحورا، وبعد الأثر النفسي العاطفي والشحنة الإيمانية التي خلّفها مقتل الشيخ عبد الله عزام رحمه الله.

هذا مع الانتباه إلى أن المخابرات كانت قد اخترقت عددا من أنوية الجهاديين الأفغان في وقت مبكّر حتى قبل الانقلاب. وهنا أيضا كان الإعلام حاضرا بقوة لنقل وتضخيم الخطابات والمواقف الصغيرة والمنعزلة المتفرّقة واستغلالها بشكل مدروس وممنهج ومُغرِض.



بائع الملوك (٣)

يسرا جلال

اجتاحت المظاهرات العارمة أزقة الفسطاط تمامًا كما عم الغضب أرجاء العالم الإسلامي كافة.. بين جموع الجماهير الكثيفة حول قلعة الجبل بدا محمد حانقًا.. رفع صوته عاليًا ليتمكن صاحبه عبد الرحيم من سماعه: «يا لجرأة هذه المرأة! من تظن نفسها لتجلس على كرسي السلطنة في مصر»؟!

اقترب عبد الرحيم منه ليطمئن أن صاحبه تمكن من سماعه في هذا الزحام: «يبدو أن نجاحها في إدارة البلاد عند نزول الفرنج إلى دمياط شجعها على ذلك»!

- «حسنًا! لم تكن هي من وضع خطة التصدي للويس، بل كان الملك الصالح هو من وضع الخطة مع قادة جيشه أقطاي وبيبرس»

- «ولكن يا محمد لا تنكر أنها امرأة قوية؛ نجحت في كتم خبر وفاة زوجها رحمه الله، وكلفت كبير وزرائه بإدارة أمور البلاد، وبذلك نجحت في منع حدوث اضطراب متوقع عقب وفاة السلطان.. خاصة أن وفاة الملك كانت أثناء معركة المنصورة و...» قاطعه محمد قائلًا: «كل هذا ليس مبررًا كافيًا لتجلس امرأة على سدة الحكم.. لم يحدث أن رأيت الشيخ العز غاضبًا كاليوم.. ولا أظنها ستصمد أمام غضبة العلماء والناس، ليس أمامها سوى التنازل عن الحكم وكبح جماح طموحها».

- «ومن يحكم مصر إذن؟

- «يحكمها أحد قادة نجم الدين أيوب». اتسعت عينا عبد الرحيم: «مملوكي يحكم»!

وحدث ما تعجب له عبد الرحيم، حكم المملوكي، وتزوجت شجرة الدر من عز الدين أيبك أحد تلاميذ زوجها لتتنازل له عن الحكم، وليدوم حكمها لثمانين يومًا فقط.

أما عز الدين أيبك فقد حكم مصر لسنوات سبع كاملة، قبل أن تقتله شجرة الدر وتُقتل به قصاصًا.

***

- «تأخرت اليوم يا صاحبي»!

- «عذرًا يا عبد الرحيم، كان علينا الانتهاء من إعداد المَهمات والأسلحة التي طلبها المظفر قطز».

- «وهل تظن أننا سنحارب التتار بالفعل»؟

- «وهل هناك خيار آخر؟ لم يوقف الزحف التتري تحالفهم مع أمير الموصل وأمير حلب ودمشق وسلطان السلاجقة. كان هولاكو يعقد معهم العهود ويضمن صمتهم وتحييد عسكرهم في الوقت الذي يقيم فيه الجسور على الأنهار ويصلح الطرق إلى بغداد ويعد عدة الحرب».

- «ولكن يا محمد لا طائل لنا بحربهم.. فنساؤهم يقاتلن كرجالهم.. وخيولهم تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات ولا تحتاج إلى شعير.. غير أنهم يأكلون الــ...» قاطعه محمد قائلًا: «دعك من هذا الكلام الساذج»! طأطأ عبد الرحيم رأسه: «أعلم أنه ساذج.. لكن أتدري؟ إنه قاتلنا... إنها النهاية... استباح بغداد أربعين يومًا واستحر القتل في المسلمين حتى سالت الدماء من الميازيب.. ألف ألف مسلم قتلوا في بغداد وحدها... لسنا بمنأى عن هذا المصير! أمي تجلس في مصلاها تبكي وتدعو الله بخروج المهدي.. كيف هي الدنيا بدون خلافة.. تقول أمي إن سقوط الخلافة من علامات الساعة وإن علينا انتظار المهدي..».

ربت محمد على كتف صاحبه: «وإلى أن يأذن الله بخروج المهدي وجب علينا الجهاد.. لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها.

التتار يتحركون الآن شرقًا نحو مصر.. بعد بغداد سقطت حلب في أيديهم ثم دمشق، ولذا جمع السلطان قطز أمراءه وقال لهم دون مواربة: «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال وأنتم للغزاة

كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، والله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين»[١].

والعسكر في صفوف المسلمين مستبشرون بوجود الشيخ العز بين صفوفهم.. روحه قوية وثابة تحمل جسدًا ناهز الثمانين..».

مسح محمد وجهه بكلتا يديه ثم عاد واستأنف حديثه: «ليست هذه المرة الأولى التي يشارك فيها الشيخ في جهاد السيف.. أتذكر عندما نزل الفرنج المنصورة، (كان الشيخ مع العسكر، وقويت الريح، فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيرًا بيده إلى الريح، يا ريح خذيهم، عدة مرات، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتح وغرق أكثر الفرنج)[٢]، فالحمدلله الذي أرانا في أمة محمد رجلاً سخر له الريح.

يقولون في سوق السلاح إن المظفر قطز حين عزم على جهاد التتار احتاج لفرض ضرائب جديدة على الشعب، ينفق منها في تجهيز الجيش وإعداد المؤن وإصلاح القلاع والحصون وتخزين مؤن تكفي الشعب حال حدوث حصار، خاصة أن بيت المال خال من الأموال.. وهنا نصحه الشيخ بألا يفعل وقال له: «إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية وغير ذلك، وأن تبيعوا مالكم من الحوائص الذهبية والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا»[٣].

قاطعه عبد الرحيم مستفهمًا: «جاز لهم أن يأخذوا من الرعية»؟

- «نعم، ولكن اشترط الشيخ شرطين؛ الشرط الأول ألا يبقى في بيت المال شيء، والشرط الثاني أن يبيع الأمراء ما يملكون ويتساووا والعامة. ساعتها بدأ قطز بنفسه وباع كل ما يملك وتبعه الأمراء والوزراء، ثم جمعت الأموال وضربت سكاً ونقداً وأنفقت في تجهيز الجيش. طالما أبهرني سلطان العلماء بجرأته في الحق. أما قطز فأسأل الله أن يكتب لعسكر المسلمين النصر على يديه.. أتدري؟ إني مستبشر بالنصر ليس فقط لوجود الشيخ مع العسكر، ولكني أثق في تأييد الله ونصره، اللَّهُمَّ أبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا، تعز فيه وليك وتذل فيه

(١) قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، ص٢٧٥، راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ.
(٢) سلطان العلماء وبائع الملوك، ص١٢٤، الزحيلي، دار القلم.
(٣) المصدر السابق، ص١١٨.

عدوك، ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك».

***

انطلق الشيخ العز ومن معه من العلماء يحثون الناس على الجهاد، يرغبونهم في جنة عرضها السماء والأرض، ويذكرونهم بنصر الله لعسكر المسلمين على الفرنج في المنصورة.



وبعد مشاورة قادة جيشه قرر قطز التحرك نحو الشرق لا انتظار التتار في مصر، تحرك عسكر مصر نحو فلسطين وباغتوا التتار في غزة، وأكملوا مسيرهم نحو يافا حتى كانت المعركة الفاصلة في عين جالوت. كان يومًا من أيام الله لم يشك كتبغا قائد التتر في النصر للحظة {فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب}، وسقطت جحافلهم تحت سنابك خيل عسكر المسلمين وُقضي بفضل الله على أسطورة التتار في موقعة عين جالوت عام ٦٥٨ هجرية. كسرت شوكة التتار وخذلهم الله وتنفس المسلمون الصعداء.

***

كعادتهما التقى محمد وعبد الرحيم على شاطئ النيل، وجلس محمد تحت ظل شجرة وسأل صاحبه المنشغل بتأمل صفحة النهر: «هل سمعت ما قاله الشيخ العز لركن الدين بيبرس»؟

هز عبد الرحيم رأسه نافيًا: «كلا، ولكني علمت أن بيبرس استدعى الأمراء والعلماء لمبايعته على حكم مصر. وعلمت أنهم بايعوه بالفعل».

رفع محمد صوته مزهوًا بأخباره الطازجة: «رفض الشيخ العز مبايعة بيبرس لكونه مملوكاً.. وقال له يا ركن الدين، أنا أعرفك مملوك البندقدار». فأحضر بيبرس ما يثبت أن البندقدار وهبه للصالح أيوب الذي أعتقه بدوره وساعتئذ بايعه الشيخ العز».

ابتسم عبد الرحيم قائلًا: «الحمد لله الذي رزقنا علماء يسعون لإعلاء كلمة الحق والدين».

***

وبعد عامين من عين جالوت توفي سلطان العلماء وبائع الأمراء الشيخ العز بن عبد السلام عن عمر ناهز الثالثة والثمانين، وكان ذلك في ولاية الظاهر ركن الدين بيبرس الذي حزن لوفاة الشيخ وقال: «لا إله إلا الله، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي»[٤]. وكانت وفاته مصداقًا لرؤية فسرها عندما جاءه أحدهم فقال له رأيتك في النوم تنشد: وكنتُ كذي رِجْلين رِجْل صحيحة * ورِجْل رمى فيها الزّمان فشُلّتِ

فسكت ساعةً ثم قال: «أعيش من العمر ثلاثاً وثمانين سنة، فإن هذا الشعر لكُثَيّر عَزّة، ولا نسبة بيني وبينه غير السن، أنا سُنّي وهو شيعي، وأنا لست بقصير وهو قصير، ولست بشاعر وهو بشاعر، وأنا سُلَميّ وليس هو بسُلَمي، لكنه عاش هذا القدر».

وحمل بيبرس نعشه وصلى عليه، وكان يوم دفنه في القرافة بسفح المقطم مشهودًا، شارك فيه خلائق لا تحصى، كما صلى عليه المسلمون صلاة الغائب في جميع الحواضر الإسلامية.

(٤) المصدر السابق، ص١٩٢.



الفـصل الثاني

حرب العصابات

تعرف حرب العصابات بأنها شكل خاص من أشكال القتال يدور بين قوات نظامية وبين تشكيلات مسلحة تعمل في سبيل مبدأ أو عقيدة بالاعتماد على الشعب أو جانب منه ، وتستهدف تهيئة الظروف الكفيلة بإظهار هذا المبدأ أو هذه العقيدة إلى حيز التطبيق .

الفرع الأول

عناصر حرب العصابات

المبحث الأول

الاستراتيجية في حرب العصابات

المبدأ الأول : العمل من خلال تنظيم عقائدي

فأول مبدأ من مبادئ الإستراتيجية في حرب العصابات هو إدارة الحرب عن طريق تنظيم سياسي قائد،

ولهذا المبدأ مجموعة من الأسباب أهمها: الطبيعة السياسية لحرب العصابات، وحاجة العصابات إلى عنصر الالتزام، فضلا عن اعتمادها التام على مركزية التخطيط .

نواة هذه الحرب هي مجموعة من الرجال باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل مبدأ سياسي معين، وليس من سبيل أمام هذه المجموعة إلا الاعتماد على التوجيه والتثقيف السياسي لتواجه به التفوق المادي المعادي، ولتقنع به رجالها بالتقشف والمثابرة والصمود والمقاومة .

وأما عن حاجة العصابات إلى عنصر الالتزام، فقد ثبت أنه بدون هذا العنصر لا يستطيع قادة العصابات أن يعملوا على جمع الشاردين وكبح الجامحين، فضلا عن تقديم المعاونة لمن يحتاج إليها من تشكيلات العصابات المنتشرة هنا وهناك. والطريق الوحيد هو خضوعهم لتنظيم عقائدي قائد، إذ لا يملك رجال العصابات تلك الوسائل التي تمكن الجيوش النظامية من فرض الطاعة بأسلوب الضبط والربط القهري .

وأما عن اعتماد العصابات التام على مركزية التخطيط فأساسه ضمان الفعالية، إذ في مثل حرب كحرب العصابات يتأتى النصر الكبير من آلاف من الانتصارات الصغيرة، ولا يمكن تحقيق الفعالية لهذه العمليات الصغيرة المتعددة إلا إذا كانت جميعها موظفة بتخطيط مركزي واع لخدمة الهدف النهائي للحرب، ولا يمكن ضمان المركزية في التخطيط إلا إذا خضع الجميع لتنظيم عقائدي قائد .

المبدأ الثاني: تجنب الحسم العسكري

ويقصد بهذا المبدأ تجنب العمل على كسب الحرب بالوسائل العسكرية البحتة، فهذا الأسلوب فضلا أنه أكبر من طاقة رجال العصابات فإنه لا يتفق وطبيعة هذه الحرب، فحرب العصابات هي حرب السياسة في مواجهة القوة، حرب الالتزام العقائدي في مواجهة التجنيد الإجباري، أي أنها حرب الأضعف في مواجهة الأقوى ماديا، ولا سبيل مع هذا الواقع إلا إذا تجنبنا الحسم العسكري واستبدلناه بالحسم السياسي .

ولتجنب الحسم العسكري يعمد رجال العصابات إلى إطالة أمد الحرب بأي ثمن، ولو أدى ذلك إلى التراجع المكاني إذ لا يهم هذا التراجع المكاني ما دامت الرقعة السياسية تزداد يوما بعد يوم .

ولإطالة أمد الحرب ، ينتهج رجال العصابات عقيدة « الحركية » من الناحية العسكرية ، وتعني هذه العقيدة الديناميكية الدائمة ، فضلا عن الفعالية والمبادرة وسرعة اتخاذ القرار في مواجهة الأوضاع المتغيرة . بحيث تظل الحرب سائرة إلى الأمام دوما . فعقيدة الحركية تعني بالنسبة لرجال العصابات الحماية التامة

من الفتور وفقدان الحماسة فتزداد قواتهم وقوتهم كل يوم ، بينما تعني بالنسبة لعدوهم اليأس الكامل من هذه الحرب التي لا تريد أن تتوقف ولا يبدو لها نهاية ما . وهنا لابد أن يعمل عدوهم على التخلص من هذه الحرب حماية لنفسه من الانتحار السياسي .

المبدأ الثالث : الحرص على الحسم السياسي

وتنحصر مبررات هذا المبدأ في تسليم رجال العصابات بعدم جدوى الوسائل العسكرية وحدها، فضلا عن اقتناعهم التام بأنهم لا يحاربون من أجل غزو مادي، وإنما من أجل تحرير سياسي وفتح عقائدي، ولهذا فإن الحرب بالنسبة لهم تنتهي مع العدو حالما يسلم لهم بأهدافهم السياسية، ويترك لهم حرية العمل على نشرها وتطبيقها .

وأما وسائل تحقيق هذا المبدأ، فأولها تحليل الموقف السياسي العام بدقة، وتحديد عوامل الإيجاب والسلب فيه، ثم العمل على توظيف العوامل الإيجابية وتحييد العوامل السلبية لخدمة الأهداف السياسية المطلوبة. ويراعى في تحليل الموقف السياسي دراسة الأوضاع السياسية المحلية والدولية، كما تدخل في دراسة العوامل السياسية الإيجابية والسلبية دراسة العقائد السياسية لدى كل من الطرفين، وكذا دراسة مدى إيمان الأنصار خاصة، والشعب عامة، بهذه العقائد السياسية، فضلا عن مدى تحالف هذه العقائد مع كل من المستقبل وقواعد اللعبة الدولية .

المبدأ الرابع: المرحلية

فحرب العصابات تنقسم من الناحية الإستراتيجية إلى ثلاث مراحل هي: المرحلة الدفاعية البحتة ، ومرحلة التوازن ، ومرحلة الحسم السياسي .

وتبدأ المرحلة الدفاعية من اللحظة التي يقوم فيها رجال العصابات بتشكيل الجماعات المسلحة، وتستمر طالما كان عدد الرجال قليلا، وطالما كان التأييد الشعبي لا يزيد عن نواة في صدور بعض المشايعين .

ويحرص رجال العصابات في هذه المرحلة على الصمود أطول مدة ممكنة، إذ إن هذا الصمود هو طريقهم إلى تنمية التأييد الشعبي، وزيادة التشكيلات المسلحة التي تأتمر بأوامرهم .

وأما مرحلة التوازن فهي تلك المرحلة التي تبدأ بتوفر العدد الكافي من التشكيلات القادرة على مبادلة العدو بالضربات، وتنتهي بوصول العدو إلى درجة التجمد .ويستهدف رجال العصابات من هذه المرحلة تنشيط

المعارضة السياسية في مواجهة الحكومة العادية، إذ يؤدي تنشيط هذه المعارضة إلى إرهاق هذه الحكومة في إيجاد التبرير الكافي للاستمرار في هذه الحرب التي تتزايد أعباؤها المالية يوما بعد يوم كما تتزايد خسائرها البشرية بغير ما نتيجة تبدو في الأفق، وحين ترى هذه الحكومة أنها عاجزة عن تبرير الاستمرار في مثل هذه الحرب وبالتالي آخذة في الانتحار سياسيا أمام معارضيها.. فإنها لا بد أن تصدر لقواتها الأمر بالتجمد.

وطريق العصابات لتحقيق النتيجة المرجوة من هذه المرحلة هو القيام بالهجمات اليومية القاسية التي تجبر العدو على تشتيت قواته على طول المواجهات الواسعة، والأعراض النائية، كما تجبره على زيادة تعبئة موارده في بئر مسحور.

وأما المرحلة الثالثة مرحلة الهجوم العام المضاد والحسم السياسي، فهي تلك المرحلة التي تبدأ بوصول العصابات إلى مرحلة تستطيع فيها تشكيل قوات نظامية قادرة على خوض حرب المواقع. فبهذه النواة النظامية يعمد رجال العصابات إلى شن معركة عسكرية ذات تأثير معنوي فاصل لإجبار العدو على إنهاء الحرب لصالحهم.

وتعتبر هذه المرحلة الأخيرة من أهم مراحل حرب العصابات، فبعد أن تنتهي الكباش في مرحلة التوازن إلى التناطح الواقف المتجمد، لابد من حركة سريعة وقوية يقوم بها رجال العصابات للإيقاع بالعدو الذي أنهكه التعب وأرهقه حتى وصل إلى مرحلة التجمد.

وهذه المراحل الثلاث، وإن كانت ملحوظة في كل حرب للعصابات، إلا أن الواقع المتشابك لا يسير دائما بهذا التبسيط النظري السهل. ولهذا يحرص رجال العصابات على التمسك بالمرونة التامة لمواجهة الواقع المتشابك وتحويله لصالحهم، فمثلا إذا استطاع العدو أن يكسر هجوم العصابات العام في مرحلة الحسم فإن رجال العصابات يعودون من فورهم إلى مرحلة التوازن، واذا استطاع العدو أن يعاود نشاطه بدفعة جديدة رغم توقفه في مرحلة التجمد فإن رجال العصابات يعودون فورا إلى المرحلة الدفاعية البحتة، وهكذا حتى يقتنع العدو بأنه أمام حرب لانهاية لها إلا إذا تنازل عن عناده السياسي وسلم لرجال العصابات بمطالبهم.

المبدأ الخامس: الحرص على التأييد الشعبي

وبالنسبة للتأييد الشعبي، فلا يمكن لحرب العصابات أن تقوم ضد إرادة شعبية أو حتى في ظل لامبالاة شعبية؛ فالتأييد الشعبي هو الحليف الطبيعي لقوات العصابات، ولهذا أجمع مفكرو العصابات على ضرورة الحصول على المساندة الشعبية حتى تنجح حرب العصابات.

المبدأ السادس: العمل على الفوز بالتأييد الدولي المناسب

فلابد لرجال العصابات من تأييد دولي مناسب يتيح لهم التمتع بعمق سياسي أرحب، كما يتيح لهم التطلع إلى مستقبل أفضل. خصوصا وأننا نفترض أن رجال العصابات يحاربون عدوا ينتظم رجاله في دولة، وهذه الدولة لابد أن تستجيب لرجال العصابات إذا ما أحسن الضغط عليها بواسطة الدول الأخرى .

وللحصول على التأييد الدولي يعمد رجال العصابات إلى وسائل متنوعة مثل: إنشاء حكومة مؤقتة، أو فتح مكاتب سياسية في الدول المختلفة، فضلا عن استدرار العطف والتأييد في المحافل الدولية المتعددة .

المبحث الثاني

التكتيك في حرب العصابات

أولا : القواعد العامة التي تحكم تكتيك العصابات:

- الهدف التكتيكي هو المقاومة لا تحقيق النصر، ولذا يجب ترك العناد والإصرار إلا عند عدم التمكن من الفرار فحسب، ولهذا قال ماوتسي تونج: "على رجال العصابات أن يكونوا خبراء في الفرار".

- يجب الحذر دائما من حصار العدو، والتملص فورا من القتال عند بادرة ذلك .

- يراعى في الهجوم الحذر التام، مع مراعاة الضجة في الشرق والهجوم في الغرب .

- يجب الاعتماد التام على التخفي بالاندساس والاختلاط بالسكان المحليين .

- يجب أن تكون قواعد الانطلاق محصنة تحصينا طبيعيا، ومجهزة هندسيا للدفاع عنها عند اللزوم ، كما يجب فضلا عن ذلك أن تكون متمتعة بممرات خفية سهلة للفرار .

- يراعى عدم ترك أية آثار عند الانتقال أو التوقف للراحات .

- يجب القيام ببث قواعد صغيرة حسنة الإخفاء حول منطقة الأهداف قبل الهجوم عليها، حتى يمكن استخدام هذه القواعد في إخفاء المصابين توطئة لنقلهم إلى مناطق أكثر أمنا .

- تحل مسائل الإعاشة والذخيرة باستخدام مخازن صغيرة مخفاة لا يعرف طريقها إلا عدد محدود، وتوضع المواد المطلوب تخزينها في أوعية من البلاستيك أو الصفيح أو الزجاج حتى لا يفسد بالمياه والرطوبة .

- يراعى السرية التامة، فخطط التحرك وقواعد الانطلاق الفرعية والتبادلية فضلا عن الرئيسية بالطبع،

لا يجب أن يعرفها إلا نفر قليل .

- يراعى تجنب النمطية والتكرار عند تنفيذ العمليات التكتيكية المختلفة .

- الاندفاع والتهور مرفوضان تماما في تكتيك العصابات .

- المفاجأة والسرعة والحسم، أمور مهمة في تكتيك العصابات .

- يفضل مهاجمة العدو وهو في حالة التحرك، لسهولة الإيقاع به في هذه الحالة .

- يفضل الهجوم على المنشآت المنعزلة لأثرها السيكلوجي، فضلا عما تؤدي إليه من إجبار العدو على الانتشار وتوزيع قواته، بالإضافة إلى توفر المؤن والسلاح بها بكميات كبيرة نسبيا .

- يجب سحب أسلحة ووثائق القتلى من رجال العصابات .

- يجب أن يعتمد رجال العصابات على جهودهم الذاتية للتعيش، فيتفرقون للحياة ويجتمعون للقتال .

ثانيا : الكمين

الكمين عند رجال العصابات ينفرد بميزات معينة أهمها، الاعتماد على الدعم المحلي للسكان في الإخفاء والتمويه والانسحاب وتكديس الأسلحة والمعدات المطلوبة، وكذا تعويض الإمكانيات المادية المطلوبة بالروح المعنوية العالية والذكاء المحلي .

ويقصد بالكمين الاختفاء في موقع جيد ينتظر تقدم العدو تحت سيطرته، حيث تقتحمه قوات الكمين بغرض إبادة العدو أو الحصول منه على أسرى أو وثائق أو أسلحة أو معدات، فضلا عن إزعاج العدو وإثارته وإرهابه بالطبع .

ولنجاح الكمين بهذا المعنى ، تعمد قوات العصابات إلى تقسيم الكمين إلى ثلاث مجموعات، هي مجموعات الملاحظة ، والاقتحام ، والوقاية وستر الانسحاب .

ويرى أرنستو شي جيفارا أن من الممكن أن يتم الكمين بطريقة أخرى سماها هو « الرقصة الموسيقية » وفيها ينقسم رجال الكمين إلى أربع مجموعات تحتل كل منها اتجاها جغرافيا معينا وتقبع فيه انتظارا للعدو . فاذا ما جاء العدو وتوسط هذه المجموعات عمدت إحداها إلى إطلاق النار عليه ، فإذا ما هجم عليها : انسحبت هي من أمامه بينما تطلق مجموعة أخرى النار عليه ، وهكذا تتبادله المجموعات الأربع هجوما

وانسحابا حتى تنهار روحه المعنوية ويتجمد في مكانه ثم يقع فريسة سهلة للكمين في النهاية .

ولا يهم الوقت في تنفيذ هذه المناورة، فقد يكون ليلا أو نهارا، إلا أنه يراعي تقصير الأبعاد فيما لو نفذت هذه المناورة ليلا .

كما يرى كل من ماوتسي تونج، والجنرال نيجوين فوق جياب قائد جيش التحرير الفيتنامي - فيما سبق - أن من الممكن تنفيذ الكمين بطريقة مركبة يطوق فيها العدو مجموعة صغيرة ثم يكتشف بعد فوات الأوان أنه كان خاضعا لخدعة ماكرة حيث تكون مجموعات كبيرة قد طوقته هو أيضا .

ولا تعليق لنا على هذه الطرق ، فكلها صالحة للتطبيق إذا ما روعي فيها تجنب النمطية والتكرار والبلادة في التنفيذ .

ثالثا : الإغارة

والفارق الفني بين الكمين والإغارة يكمن في أن الكمين انتظار وترقب في موقع جيد ، بينما الإغارة تقدم مدروس إلى هدف مختار بعناية .

المبحث الثالث

التقدم العلمي

رجال العصابات لا يألون جهدا في التمتع بالتقدم العلمي وآثاره حتى ولو من قبيل إثبات الذات وإراحة الضمير ، ولهذا تراهم يتلهفون أيما تلهف إلى الأدوات الفنية، يحاولون تصنيع هذه الأدوات أو مثيلها بالإمكانيات المحلية المتواضعة التي يملكونها.

وضع القوات في مرحلة المفاوضات

إن رجال العصابات لا يدخلون مرحلة المفاوضات إلا بعد تحقيق التوازن السياسي لقواتهم، ويقيس رجال العصابات توازنهم السياسي بما يلي :

- تحرير غالبية السكان سياسيا .
- توفر بعض التشكيلات النظامية القادرة على خوض بعض المعارك المعنوية الفاصلة.
- تأييد غالبية الدول لرجال العصابات في الأهداف السياسية التي يستهدفونها .

الفرع الثاني

الإعداد لحرب العصابات

المبحث الأول

إعداد التشكيلات المسلحة

أولا: مرحلة التجنيد

وفي هذه المرحلة تقوم المجموعة الأولى من رجال العصابات (قادة الحزب السياسي القائد) ببث دعوتها السياسية لدى أقرب الناس فكريا إليها، مستهدفة بذلك استقطابهم إلى تشكيلات العصابات. ويلي ذلك إرسال هؤلاء الأفراد المنضمين في مجموعات صغيرة إلى المناطق المجاورة لحث السكان على التطوع في حرب العصابات معتمدين في ذلك على استغلال بعض الاعتبارات لا ذكاء الروح التطوعية بين السكان . ومن أمثلة هذه الاعتبارات الاعتبار القومي في حالة ما إذا كانت الحرب ستنشب ضد عدو محتل أو آخذ في الاحتلال ، واعتبار الظلم الاجتماعي وفساد جهة الإدارة إذا كانت الحرب ستنشب ضد حكومة ظالمة أو غاشمة .

ثانيا: مرحلة الانتقاء والتوزيع

وفي هذه المرحلة يتم إجراء الاختبارات اللازمة لفرز المتطوعين على أسس موضوعية، ثم توزيعهم توزيعا مناسبا لإمكانياتهم الفكرية والجثمانية والنفسية. ولا مجال في هذه المرحلة للوساطات أو العوامل الشخصية.

وتتسم توزيعات العصابات بالبساطة، فهي لا تزيد عن درجتين (قائد عسكري وقائد سياسي + مجموعة رجال في الوحدات الأولية، أو مجموعة وحدات أولية في الوحدات المركبة) .

ثالثا: مرحلة التدريب

ونبدأ هذه المرحلة فور نهاية المرحلة السابقة، ولاشك أن مرحلة التدريب تعد من أصعب وأخطر مراحل الإعداد لحرب العصابات. لافتقار العصابات التقليدي للمدربين المهرة، وصعوبة إجراء التدريبات العسكرية دون أن يحس بها العدو.

ولا يتدرب رجال العصابات على نمط واحد، بل هم يتدربون وفقا للمهام المنتظرة ودور كل واحد منهم فيها، فهناك من يتدرب على القتال والعنف، وهناك من يتدرب على الاغتيال والتخريب، وهناك من يتدرب

على معاونة القوات النظامية الصديقة إذا كان منتظرا اشتراكها في الحرب. وأخيرا فهناك من يتدرب على أعمال الإعاشة والشئون الإدارية وتوصيل المعلومات والأوامر.

المبحث الثاني

تهيئة المناخ السكاني والطبوغرافي

أولا: تهيئة المناخ السكاني

ويقصد بتهيئة المناخ السكاني هنا تعويد القطاع العريض من السكان المحليين على التعاطف مع رجال العصابات، ويتم تعويد السكان على هذا التعاطف بالعمل السياسي النشط وبالحرص التام على السلوك المثالي في التعامل مع هؤلاء السكان، وبإنزال العقاب الصارم بالخونة من هؤلاء السكان.

ثانيا: الإعداد الطبوغرافي

ولا يعتمد رجال العصابات كثيرا في هذا على الخرائط أو أساليب الاستطلاع والمساحة التي لا قبل لهم بإمكانياتها، وإنما على استكفاء بعض الرجال الذين يحفظون الطرق والدروب. كما يعتمدون في تقدير المسافات قبل وأثناء الاشتباكات على أسلوب التقدير بالنظر. وبالطبع فإن رجال العصابات لا يمانعون إذا ما توافرت لهم أساليب أكثر دقة من ذلك.

المبحث الثالث

توفير القدر الأولى اللازم للإعاشة والقتال

وفي هذا المجال يعتمد رجال العصابات على وسائل عدة، أهمها تخزين بعض المؤن والمعدات والأسلحة في مخازن صغيرة لا يعرفها إلا نفر قليل، ومسلحة بالإخفاء والتمويه اللازمين، فضلا عن تهيئتها لحماية المخزون من التلف والفساد. وينتهج رجال العصابات أسلوب التقتير التام في الاستهلاك من هذا المخزون خصوصا في المراحل الأولية، إذ لاشك أن وقتا سيمر قبل أن تعمل القنوات المحلية والخارجية على تعويضهم بالمؤن والعتاد والسلاح.

كَلِمَةُ حَق

دورية ثقافية معرفية
تصدر أول كل شهر

www.klmtuhaq.blog
klmtuhaq